رسائل إلى ابنتي

دكتورة نعمات أحمد فؤاد

رسائل إلى ابنتي

الطبعة الأولى : يناير ١٩٨٤

فهرس

الموضوع	صفحة
فى هذا الكتاب	٧
الفصل الأول : فى المهد	
حنان	١٢ — ١٥
فينان	١٦
إلى ولدى	١٧ — ٢٣
الفصل الثانى : الكفاح	
بعد التدليل	٢٦
الكفاح	٢٧ — ٤١
نساء عربيات	٤٢ — ٥٨
الفلاحة المصرية	٥٩ — ٦٣
العاملة المصرية	٦٤ — ٦٦
الجامعية	٦٧ — ٧٣
التافهات	٧٤ — ٧٨
الفصل الثالث : فى الحياة	
المـــال	٨٠ — ٨٢
رأى الناس	٨٣ — ٨٩
قيمة الصداقة	٩٠ — ٩٦
كلمة للحياة	٩٧ — ١٠١
الديـــن	١٠٢ — ١٠٤
الثقافة	١٠٥ — ١٠٦

الفصل الرابع : السؤال الصعب السهل

كيف جئت .. كيف أتيت	١٠٩ — ١١٣
فـــن الاختيار	١١٤ — ١١٧
اختيار زوج	١١٨ — ١٢٢
الزوجة المثالية	١٢٣ — ١٢٨
الأم المثاليـــة	١٢٩ — ١٣٨
من حديث البنوة	١٣٩ — ١٤٤
قرأت لك	١٤٥
كتاب : اكتشاف ميول الأطفال	١٤٥ — ١٤٧
الأمانة دائماً	١٤٧ — ١٥٠
كيف تكون أباً ناجحاً	١٥٠ — ١٥٢
صحة أبنائك	١٥٢ — ١٥٥
سبيلك إلى الصحة	١٥٥ — ١٥٨

هذا الكتاب

جرت العادة أن ينصح الآباء الأبناء ، ولكن الأمهات يكتفين بالأمل المرتسم فى المهد ، والبث الهامس فى الرشاد . . . أما أن يكتب الأمهات أحاسيسهن وهى عميقة ، ويصورن مشاعرهن وهى جمة غنية بالألوان فذلك منهن قليل نادر .

وفى الآداب ، أدبنا وآداب الآخرين كُتب من الآباء إلى الأبناء هى فى الأعم الأغلب رسائل حب وعطف ونصائح . . ومن أمثال هذا كتاب المرحوم الأستاذ حافظ عوض (من والد إلى ولده) ومنها ما تضمنه كتاب الدكتور أحمد أمين (إلى ولدى) . . .

وإلى جانب هذا عبارات قليلة موجزة من أم لابنتها أو ولدها ولكنها لاتعدو أن تكون إشارات تومىء ولاتحيط . . . إنها لاتشبع ذلك الدفق من العواطف فى صدر أم . . . ومن ثم كانت حاجتى ملحة إلى الكتابة إليك ، ولذلك فكان كتابى الأول .

ومع هذا فكتابى أو كتابك كثيره منك وقليله منى بل هو كله من وحيك ومعانيك ... فقبلك لم يكن قلمى يعرف طريقه إلى يدى بهذه السهولة والغزارة... إنه تبعك تجدر فى صدرى حنانا وصفاء وحبا . . فعب قلمى منه علالا بعد نهل وما ارتوى كقلبى وعينى وسمعى على كثرة العب ، وطول الرشيف.

ومضت سنوات فإذا بى موعودة بميلاد جديد يضيف إليك ، مثلى كنزاً كبيراً . . . بنوة وأخوة هل فى الحياة أغلى من هذا ؟ لا أحسب .

الأهل والأصدقاء يدعون بغير حروف وأحياناً يبوحون . . . أمنية الجميع أن يكون المولود صبياً ليكون لك أخ ولكنى كنت أتمنى أن يكون لك أخت أولا . . .

وجاءت ســـاعة المولد . . وقال الجميع يارب . . وقلت يارب ممزوجة بالألم والأمل والرجاء . . . رجوت ربى أن يهبنى بنتا من حبى فيك ومن إيمانى بفكرة أخت لك تكون حبيبة وصديقة من دمك تغنيك فى مواقف لايغنى غناءها أحد مهما أخلصت الناصحات والمحبات والصديقات.

وجاءت فينان شقيقتك وكأنك نظرت فى المرآة فرأيت صورتك.

وتضاعفت حاجتى إلى الكتابة إلى « ابنتى ».

ولكن فرق بعيد بين الأمس واليوم أو بين كتابى الأول وكتابى الثانى. ففى الأول كانت ابنتى وليدة وكنت أنا أماً حديثة عهد بالأمومة . . . مسحرّه . . مبهوره كمن وجد نفسه ، فجأة ، فى جنة غنية بالألوان أو فتح عينه ، بغته ، على كنز من اللآلىء . . . فكتبت ما كتبت بعاطفة مشبوبه تفجرت أشواقها . . .

ولكن كتابى الثانى أكتبه ، بعد أن غدت لى بنتان لا واحدة ، بشعور جديد . . عاطفتى هى هى ولكنها تركزت . . . متقدة ولكن رشيدة ... غامرة ولكنها أكثر خبرة ، وأوضح رؤية ، وأبعد فكراً وأنضج حياه.

كنت بالأمس أكلم فى المهد ، صبية . وأنا اليوم أكلم شابه تسعى فى خطوات ثابتة إلى الجامعة. . إلى كلية العلوم، كلية العصر ، وأكلم زهرة تواكبها « شقيقة » وصديقة . . . بلا شك يختلف الحديث طبقة وموضوعاً.

كنت بالأمس يوشوشنى الخيال ، ولكنى اليوم يحكمنى الواقع.

كتابى الأول (إلى إبنتى) كان مناجاة ومناغاة وأنا أقرب وجهها من وجهى وأتحسسها بعينى وأشم عطر طفولتها بحواسى كلها ، والدفء ينبعث من صدرى إلى صدرها وهو يحنو عليها ويكاد يحتويها وهو يهديها الحياة لبنا سائغاً . . .

كان كتابى الأول خفقات قلب .

وكتابى الثانى يقطر لها ولأختها الخبرة ويطوف بهما فى آفاق الحياة إنه حياة عقل . . .

عندما تغدو الأم صديقه

ويدور حوار

ويطول السرار

وتقترب المناقشة من الأسرار أو الموضوعات التى تعودنا فى الشرق أن نطويها بسرعة فى الكلام أو نتجاهلها تجاهلا تاماً ونعتبرها منطقة محرمة، ونظن بعد هذا أننا حسمنا الموضوع فى موضوع الحياة . . . والحقيقة أننا فى اللحظة التى نقفل فيها الباب ، يفتح أولادنا باباً آخر أوسع ولكنه أخطر إذ يقف وراءه أصدقاء صغار مثلهم بلا تجربة . . بلاعمق . . . بلاعلم وبهذا نسلمهم بأيدينا إلى الأخطاء والعقد . . . وكان الأخلق بنا أن نفتح عقولنا وصدورنا بدلا من أن يفتحوا لأنفسهم الأبواب الخلفية . . .

ولعل هذا الكتاب يواجه هذه الظاهرة فى وضوح وبساطة وصدق وايمان بالعلم وإيمان بالشباب وذكائه وطموحه وحقه فى أن يعرف . . . أن يسأل . . . . . أن يناقش . . . أن يفكر . . . أن يعيش بل أن يحيا . . .

حديثى اليوم بث . . . النصيحة فيه دعاء لادعوة ، ورأى لا إلزام . . لابنتى أن تعمل به أو تطرحه . . فحريتها فى التفكير والتعبير والإراده أغلى ثمنا من الطاعة العمياء .

الكتاب يا ابنتى هديتى إليك فاجعليه هديتك إلى رفيقاتك فإنهن أيضاً مقصودات به . . . بل اهديه فى المستقبل بإذن الله إلى ابنتك . . إلى حفيدتى منك ، باسمى واسمك معاً . . . أليست بضعة منى هى الأخرى ؟

فإلى حنان

وإلى فينان

وإلى البنات . . كل البنات

عن الأمهات . . أهدى هذا الكتاب .

* * *

يا طول حنيني إلى كل جميل وعظيم ونبيل من الصفات والسمات والآثار تمنحه السماء بلا حساب لابنتي .

عندك الكثير ياسماء . . فزفي أعزه وأنفعه

إلى الناس

وإلى ابنتي ...

القاهرة ١٩٨٤م
١٤٠٤هـ

نعمات أحمد فؤاد

الفصل الأول

فى المهد

* حنـــان
* فينـــان
* إلى والدى

حنان

الحنان . . . ذلك اللفظ العذب الذى يأسو الجراح هو الذى آثرنا أن نطلقه على ابنتنا الوليدة ليكون ايحاء متصلا يهدى خطاها فى طريق الخير ، وهاتفاً مهيباً يناشد ضميرها أن يهب البر ، ودعاء موصولا يستحث إنسانيتها ما ردد اسمها النداء .

فإلى حنان نتوجه الآن بهذه المناجاة إحتفاء بمقدمها وتخليداً ليوم عزيز حمل إلينا مع نسمات أصيلة « حنانا » .

حنان : أننا لم نختر لك هذا الاسم ليكون تميزاً لك فحسب كما جرت العادة فى الأسماء . بل إننا أردنا بإسمك وهو صفة إنسانية كريمة بل لعله أكرم صفات الإنسان ، أن يكون لك طابعاً يتوج جلاله أعمالك فتسمو ، ويترك أثره فى نفسك فتشف . ويسرى إلى قلبك فيرق ويحنو .

إن اسمك يا ابنتى كما قلت لك أكرم صفات الإنسان لأنه جماع الصفات الطيبة فيه ، فالذى يحنو يمنح ولا يسلب ، ويعطف ولا يقسو ، ويلين ولا يجفو ، ويسمح ولا يشتط . وحسب الإنسان أن تتكيف شخصيته على هذا النمط الرفيع لتلتقى القلوب على محبته وتجتمع العقول على إكباره . وإذا عشت بين الناس يا ابنتى محبوبة محترمة فقد أطمأن قلبى .

حنان : إن بى رغبة طاغية فى التحدث إليك ولكنك لم يمض على مولدك إلا أيام ، فكيف أكلم من تشرق فى المهد صبية ؟ سأسجل حديثى على الورق لتقرئيه بمشيئة الله بعد سنين قليلة . وكم يطيب لى أن أسمع رأيك فيه . أما إذا صار لك قلم وكتبت بيدك ذلك الرأى فقد تمت نعمة الله علينا وهبطت علينا ، بظهور فنك ، من سمائه السعادة .

حنان : كنت قبيل مولدك أحس يفطرني أن والدك كعادة الرجال دائماً يتمنى أن يكون الوليد صبياً . كان يروح ويغدو ويشترى ويعد لاستقباله . وكنت أسائله « وإذا كانت بنتاً » فيبتسم ويتظاهر بأن الأمر سيان . ولكنى كنت أدرك الحقيقة ، وكان يخيل إلىّ أن حفاوته سوف تفتر إذا لم تتحقق أمنيته . ولكن صدقينى يا ابنتى أنك ما إن أهلت طلعتك الملائكية على دنيانا حتى أقبل عليك وجمعك بين يديه وتأملك فى شوق ثم أخذ يرسل على خدك المنور غمراً من القبل .

ورأيت عيناى هذا المنظر الخالد بين الأبوة والبنوة وسمعت نفسى الحديث الصامت الذى دار بينكما حين كان يتأملك ويتطلع إلى وجهك ، فسرى عنى الألم . وأدرت رأسى على وسادتى أطلب بعينىّ اللتين أطلت اللهفة منهما أن أراك بدورى فحملوك إلى ، وقربوك منى فوجهت قلبى إلى خالقك أشكره شكراً عميقاً على منحته التى تعدل عندى نعمة البصر والسمع مجتمعين .

حنان : لقد بدأت تملئين حياتى فنومك يحدد نومى ، ويقظتك تستنفد صحوى ، وبكاؤك يلهب غفلتى فأهرع إليك تاركة ما بين يدى مهما كان ، وابتسامك يهبنى العزم والثقة ويشيع فى عالمى النور والأمل والغبطة.. وقد آخذ نفسى بالجد فما إن ترف ابتسامتك على وجهك البدرى حتى تستخفنى وأحس قلبى يشب من الفرح . . إننى حين أتأملك تعبث يداك وقدماك الصغيرتان بغطائك تغمرنى سعادة لاحد لها فكيف إذا سمعتك تناغين وتتكلمين وتمرحين .

حنان : قد تمر الساعات الطويلة وأنت نائمة فأشتاقك وأنت إلى جانبى ، وانتظر يقظتك . ولكنك كثيراً ما تسترسلين فى نومك الهنىء فأدنى وجهى من وجهك وأظل أتأملك فى استغراق ورقة لم أعهدها فى نفسى من قبل لأنها من صنعك أنت ، ومن وحى بنوتك لأمومتى .

وقد يحدث أن تلم بك فى نومك رجفة خفيفة فيهتز قلبى وأفزع إلى أمى ، أنا ، أسألها السبب فتبتسم قائلة : دعيها تحلم . وقد تبتسمين فى نومك فأخلق لفرط فرحتى من ابتسامتك حديثاً وأمضى أصف لجدتك وأبيك كيف ابتسمت كأنى لم أر طفلا يبتسم من قبل . . ولكن حبك الذى تفجرت ينابيعه فى قلبى جعل كل شىء تأتينه جديداً فى عينى . . إنها الأمومة يا ابنتى التى سموت بى أنت إلى عرشها . .

إننى الآن أعظم سعادة بحب أمى لى لأنى عرفت بعد مولدك قلب الأم وحب الأم .

حنان : ما أسعدنى حين أرتب لك ملابسك ، وأنسق لك هدايا مولدك ، وأفرغ من هنا لأتفقد فراشك . وأظل هكذا فى شغل شاغل بك حتى يحل موعد رضاعك فأقبل بقلب هانىء لاتسع الدنيا فرحته أضمك إلى صدرى ، ثم أتأملك وأنت ترضعين وبودى أن أسكب لك نفسى مع اللبن .

حنان : لقد أثرت خيالى . . فكثيراً ما أسبق الأيام وأتخيلك فى عيد ميلادك الأول تتألقين كزهرة السوسن فى فستان أبيض يلتف نصفه الأسفل على جسمك الصغير على شكل المروحة وأتخيل كعكة العيد وقد غرست فى وسطها شمعة مضيئة وقد أحطناك بقلوبنا نلقنك فى ابتهاج كيف تطفئين الشمعة ، فتقلدين حركتنا بثغرك الجميل فى طرافة تضحك الضحك الذى ينبع من القلب . . من فيض السرور وزهو الفرح .

وتارة أتخيلك تدبين بقدميك الصغيرتين هنا وهناك فى أنحاء البيت السعيد بك لاهية لاغية . وكم حواراً نسجه خيالى بينى وبينك . وكم انفعالا يرتسم على وجهى مما يعكسه عالم الأحلام الذى أعيش فيه منذ مولدك .

حنان : إنى أسألك يا ابنتى بعد أن أوضحت لك كيف أطلقنا عليك هذا الاسم الجميل أن تهبى من قلبك الكثير للآخرين . أغدق الحنان على

الضعفاء والأقوياء ، تجتذبين القوى وتحنين الضعيف ، وأغدقيه على الأصدقاء والأعداء على السواء ، تكسبين العدو وتأسرين الصديق . امنحى الحنان من قلبك الكبير ولاتنتظرى الجزاء ، فإن فعل الخير فى ذاته يحمل جزاءه بما يضفيه على فاعله من السعادة وراحة الضمير ، ثم إن التجرد للمثل الأعلى بدون مقابل هو ارتفاع بالإنسانية إلى أوج رفيع يسمو على الجزاء بل لعله يترفع عليه .

حنان : استلهمى اسمك ثم سيرى على بركة الله .

فينان

نشيد يوقع كل يوم ، نشيداً . . .
أنها غالياتى فينان فى طفولتها . . .

نشيد يوقع كل يوم ، نشيداً . . قد توقعه بعينيها المتوهجتين كالشعل.. وقد توقعه بالابتسام المنور الجميل الذى يسفر عن أسنانها الصغيرة الدقيقة البديعة النظم وقد انفرجت السنتان الأماميتان لتؤكدا تفاؤلنا بها . . فقد تعودنا التيامن بالأسنان الفالجة . . .

نشيد يبدع الأناشيد طفلتى بخدودها القطيفة . . بوجهها البدرى . . . بيديها البضتين . . موسيقى مرحة تتجول فى البيت حتى لتحس كل شىء فيه منغوماً حتى الجدران وقطع الأثاث .

دنوت من مهدها فى الصباح لأرقظها فإذا بها تتعابث فى دلال — قلت فى سرى أنثى صغيرة — وتسارقنى النظر الضاحك من خلف أغطيتها حتى إذا لامستها قهقهت عيناها ويداها . . . كفاها وقدماها . . . قهقه كيانها الصغير كله فضحكت لى الدنيا وسمعت ضحكتها . . دنياى هذه سمعتها بقلبى . . نشيداً حيا بغير حروف وكلمات . . .

ونهضت فينان من مهدها لتعزف من جديد بصاحب شفتيها القرمزيتين كالكريز ، سبابتها الرخصة التى تشبه الملبس المفضض . . تضع سبابتها على جبتها وتقول . . أقصد تغنى فهى كلها أغنية تحلو على الترديد . .

.. من هنا بوسنى بابا أى يبوسنى بابا .. ثم تنقل سبابتها إلى ذقنها وتقول: من هنا بوسنى ماما . . . ثم تتعاقب الأصبع الملبسة على خديها وهى تقول:
هنا حتة سكره . . . هنا سمعه منورة أى شمعة منوره .
أترى هناك نشيد أحلى وأرطب من هذا النشيد ؟

إلى ولدى

ملأت حياتى مع أختيك يابنى ... أصبح لعمرى معنى ولسعيى هدف. قد يزعج غيرى كر الأيام ومر الليالى ولكنى أفرح بتغير الزمن لأنه ينميك، فكل يوم ينقضى ينقص من عمرى أنا ولكنه يمد لك فى النماء والتفتح فما أهنأ قلبى ! . . ليت عمرى كله يضاف إلى سنيك لتعيشه أنت لى ولك يا حبيبى الصغير . .

لن أنسى ما حييت ذلك اليوم الذى عادت فيه أختك حنان من المدرسة تبكى فى ألم أكبر من طفولتها . . . وجن قلبى وحنوت عليها أسألها فإذا بدموعها تروى قصة . . . لقد كتبت المدرسة فيما تكتب من أسئلة :

كم أختا لك ؟

كم أخا لك ؟

— وماذا فى هذا ياصغيرتى ؟

لقد أجاب الفصل كله على السؤال الثانى إلا أنا . . لم أعرف كيف تكون الإجابة ؟

— أجيبى . . (ليس لى إخوة) .

فعادت تبكى من جديد وهى تقول فى سذاجة حبيبة :

— ولكن المدرسة لاتصدقنى . . كل البنات لهم أخ . .

وبكيت أنا ، وأحسست إحساس المذنب من غير ذنب . . إنك وحدك يارب تهب من تشاء الإناث ، وتهب من تشاء الذكور . . ولكن ابنتى لغفلتها من طفولة تتطلع إلىّ وما درت أنى لاأملك لنفسى شيئاً من دونك حاشاك . . ورفعت وجهى إليك فى ضراعة صامتة . لم أقل شيئاً لأنى فى

حضرة من يعـــلم السر والنجوى واستجبت لى ووهبتنى من لدنك صبيا . .

وضج البيت كله من الفرح ولجّ فى الدعاء ، وإذ زال عنى رهق الوضع نظرت إلى طفلتى فإذ بحنان يهتز كيانها الصغير وتزغرد عيناها فى فرحة راقصة :

ـ أحقا صار لنا شقيق ؟

أما فينان فقد التزمت الصمت وقلما تلتزمه هذه الشعلة الحية من ذكاء ومرح وحيوية . . كانت تدير عينيها فى المكان وكأنها تقيس مظاهر الفرح والتبريك التى أحاطت بالمولد والوليد . فأحست بذكاء الفطرة وذكاء العقل معاً ما ينتظره من حفاوة وتدليل . . وعبثاً حاولنا إخراجها من أوهامها تلك وإن استغرقتها بعد هذا دنياها الخاصة اللاعبة اللاهية ، ولكن العلاقة بينهما حددتها هذه البداية إلى حد كبير ، فهى تحنو عليه بقدر وتداعبه فى افتعال يضحك ، ولها فى هذا الباب طرائف لاذة تروى ، حين تسكب عليه حنان ، الحب والحنان دفاقاً . . وكأنها أم صغيرة ، حبيبتى الصغيرة . .

بنيّ مالى لا أمل النظر إليك كأنك أول عهدى بالبنين . ونسيت أمومتى المشبوبة أنها استقبلت قبلك . . (حنان) و (فينان) وكم أغنتنى طفولتهما بمعان وأحاسيس ولكن بك يا بنى تمت نعمتهما علىّ ، فكن لهما ، كالأمل فيك ، خير أخ . . خير صديق . . فمن أجل هذا ترجو الأخوات الشقيق . . ولمثل هذا ترجو الوالدات البنين . .

مالى لا أمل النظر إليك كأن لاعمل لى إلا قراءة وجهك حين تصحو وحين تغفو حتى لكأنى أرى رموشك وهى تنبت وحاجبياك يكتفان يوما بعد يوم . . لا أمل تقبيل رقبتك وعطر الطفولة كامن فيها . . وكلما

قبلتها وعبقت من شذاها رددت بغير حروف . . قول تلك الأعرابية التى كانت ترقص ابنها وتقول :

يا حبذا ريح الولد ريح الخزامى فى البلد

لقد ذكرها ابنها بالخزامى.. حين أنسيتنى كل الزهور .. كل العطور .. ليس مثلك شىء ياصغيرى الحبيب . .

يـا بنىّ مـا أحيـلى يـا بنى
أنت ظـل مـده الله عـلىّ
نعمـة العمـر وتذكار الصبـا
والأمـانى التى عزت لـدىّ
لسـت أنسـاك جنينـا خافيـا
فى ضـمير الغيب أدعـوك إلى
أتمنـاك لعينـى قـرة
حين ألقـاك وليـدا فى يدى
أرقب اليـوم الـذى تبسـم لى
وترى أى الرضـا فى مقلتى
فأناجيك بألحـان الهـوى
سابقات خـاطرى فى شـفتى
كلمـات هى لا معنى لهـا
غير أن تسـمع منى أى شى
فتراعينى ولا تقـوى عـلى
غض أجفانك عنى يـا بنى

كل ما فيك يحلو ويسر حتى تغيير لفائفك بما فيها من فضلات عمل

هنيء أباشره فى سعادة وفرحة . . كل حركاتك ترف عليها فى عينى مخايل الذكاء فلفتات رأسك أمارة انتباه ويقظة . . ونظرات عينياك فى اتجاه الصوت علامة إدراك لمصدره . . وخفقات قدميك الصغيرتين حين تعبثان باللفائف البيض دليل حيوية . . سجل حافل بالتفسيرات : سجلك وسجلى متعك يا بنى . . .

كم مرة تحسست كفيك وقدميك . . كم مرة شممت عطر طفولتك كما يستروح مجهود الشذى ويستاف العبير . . كم مرة أدنيت وجهى من وجهك ووصلت خدى بخدك ونثرت على رأسك ورقبتك وجبينك المنور قبلات داعية بلغة يفهمها عنى وعنك ، ربى وربك . . يا حبيبى الصغير .

مالى غدوت أتعلل بك عن كل شاغل سواك ولكنك كثيراً ما تنام كما ترف أنفاس الملائكة وتلوح الفرصة لعمل الكثير فى اطمئنان ولكنى لاأتحول عن مهدك ، فالإنسان لايترك المتعة مختارا وأنت متعة الروح وقرة العين والقلب وتمر الساعات على فى جوارك لا أحس بها مستغرقة فيك نشوى . وقد أنتبه لحظة على صوت فى داخلى يقول : فيم عذرك الآن ؟ قومى إلى بعض شأنك ، فأتجاهل الصوت والصدى وأعود وأفتح عينى عليك تعب لى من عينيك وشفتيك ويديك . . كلك . . كلك يا حبيبى الصغير . .

لقد أحاطت بك القلوب . . منذ كنت مجرد سريان فى الحشا يخفق له قلبى وتضىء له روحى . . منذ ذلك اليوم كثرت التكهنات والرؤى والأحلام . . وكنت أرتاح للرؤى والأحلام . . ويتشبث أملى بالرموز والدلالات وأستنطق (فينان) الخبر ، وأسألها عن نوع المولود أنثى أم ذكر ، إن صفاء الفطرة فى الطفولة يكشف عنها الحجب كما يقولون . . نسيت كل ما تعلمته فى الليالى الطويلة من منطق وعلوم . . وغدوت لعبة فى يد الخرافات والأوهام من شوقى إليك . . من طول حنينى .

لقد ضمك قلبى قبل أن يحتويك ذراعى وتلثمك عينى فماذا رأيت فيه؟

هل استطعت أن تحيط بحنانى وحبى ؟ هل عرفت مدى لهفتى وشوقى ؟ أحسب هذا فوق استطاعتك يا حبيبى الصغير .. إن القلب أكبر من اللغة .. أكبر من الشعر والشعراء .. أكبر من الفن والفنانين .. فما بالك أنت يا طفلى الصغير .

هل كنت تدرى وأنت تمرح فى حشاى أى سعادة كنت تضفيها بجولاتك هذه ؟ ليس فى الدنيا ضيف يعمق حبه كلما أكثر من الطرق والتنبيه مثلك .. كانت طرقاتك بمثابة (الهاتف) — بلغة إخواننا فى الشمال — الذى يطمئنى عليك ويذكرنى بنعمة وجودك وما نسيت ..

وجاءت ساعة المولد .. وكربنى من الألم ما يكرب الوالدات .. وتضرعت عيون وصلت قلوب .. وتعلقت أنفاس . وكنت فى آلامى لا تفوتنى معانى النظرات والخفقات فيعلو خوفى وأغيب فى صلاة صامتة ألا تخيب هذه الآمال المعلقة عليك المتعلقة بك .. فإذا اشتد الألم عدت إلى دنياى التى انحصرت ساعتئذ فى الطبيب والأهل ، أما الطبيب فكان يخلط جده بالمرح ، وأما الأهل فقد كانوا يمرون بتجربة قاسية حتى إذا أعلن الطبيب قرب مقدمك تجاوبت الأصوات حولى فى هتفة واحدة : « يارب ! » وانهلت دموعى تغسل وجهى وقلقى ، تمسح خوفى ورهقى ، ووجدتنى فى إيمان عميق .. كالقديسين والأبرار أقول بصوت باك : (يا رب !) قلتها كما لم يقلها أحد من الملتفين حولى على صدق حبهم وإشفاقهم . قلت يا رب بكل آلام عمرى .. بكل آمال قلبى .. كأنك وحدك عوض عن الآلام .. كفاء لكل الآمال . قلتها وهدأت هدأة اهتبلها الطبيب فرصة سانحة فأعمل حقنه فى جسمى ، واستسلمت لأوامره المتتابعة من فرط إعياء أو من عزاء كأنى موعودة من الله الذى دعوته باستجابة الرجاء ، ثم بدد هذا الهدوء المسكوب رجة ضج لها كيانى كله حين

اندفعت أنت إلى النور معلنا مولد حياة ، وبشرى ميلاد ، ونعيم قلب ، وأمل أسرة .

وصاح طبيبي فى صوت المنقذ : (ولد!) فهللت عيون وتهللت وجوه ورفت ابتسامات وصعدت دعوات . ثلاثة حروف من نور كان لها فعل السحر فى البيت المنتظر والصبر المرتقب والرجاء المشبوب .

وأضاءت أيامى بك يا بنى وانجلى عنى الألم وعدت إلى ما كنت فيه من زحام عملى ومشاغل دنياى ولكنى فى كل الحالات تلفنى الضجات أو تستغرقنى الهدءات ترن فى أذنى هتفة الطبيب فى ذلك اليوم الحبيب (ولد!) فأنتشى من جديد وترف على وجهى من تلقائها ابتسامة سعيدة ترتسم على أثرها ابتسامات وإن كانت لا تدرى السر ولم تسمع الهتفة (ولد) .

كنت أنت يا بنى (الولد) وأصبحت أنت السند . . رأى فيك والدك امتداداً لعمره وفرعا لأصله ورسما من رسمه . . ورأيت أنا فيك عز أمومتى وتحقيق أمنيتى ونور أيامى ومصداق أحلامى ورضا عمرى والشوق والمنى . . ورأت فيك أختاك شقيقا وكبرا فى عين نفسيهما لم تعودا أقل من البنات اللائى لهن شقيق . . هكذا كانت تقول (حنان) التى تعلق عليك آمالا كباراً وتكل إليك حمايتها من العوادى وعزتها على الأيام ، وهى التى تكبرك ببضع سنين ! ! وأقول لها وقد راعنى تفكيرها على هذا النحو :

وكيف وهو ما زال فى المهد صبيا ؟

فتقول :

ولكنه سيكبر ويحميني . . .

عما تصدر صغيرتي يا إلهي ؟! عن قوة تفكير ، أم عن وراثات أم أن فرط رقتها أنطقتها بما تقول تنشد السلامة والأمان ؟ إنها ترقب ذلك اليوم الذي يصحبها فيه أخوها إلى المدرسة ليرد عنها كما تقول عبث الصبيان وشقاوة الأولاد وهي وصويحباتها لا قبل لهن بها . . هكذا تقول .

هكذا يا ولدي ننظر إليك طفلا كأنك طراز آخر من الأطفال ، فما بالك إذا بلغت مبلغ الرجال ؟ أي أمل يناط بك ؟ أي رجاء يعقد عليك؟ أي خير ينتظر منك ؟ أي سر يتمثل لنا فيك ؟ فكن – كما رجوناك – غلاما زكيا ثم رجلا أبيا وابنا حفيا .

يا أمل السنين .. ويا أعز البنين .

الفصل الثانى

الكفاح

* بعـــد التدليل
* الكفـــاح
* نساء عربيات
* الفلاحة
* العاملة
* الجامعية
* التافهات

بعد التدليل

وبعد التدليل ، يأتى الجد .

ولكن بينهما من البعد الزمانى مسافة مملوءة بالتفاصيل ، أتجاوزها .

إن لكل بنت سجل عندى منذ مولدها . سجلت به تاريخ أول خطوة .. أول سن ... أول كلمة ... قصتها مع طبيبها . . . أول يوم فى المدرسة ..

تطورها فى النمو . . . تدرجها فى الدراسة . . .

شهاداتها فى مختلف مراحل التعليم — آراء مدرسيها فيها . .

طرائفها . . . ما تحب . . . ما ترفض .

ما تقرأ . . . ما ترسم . . . ما تعزف .

شرائط بصوتها فى مختلف سنى العمر .

سجل حافل .

حدث أن رآه الدكتور النبوى المهندس مرة عند التشخيص فتعجب له ، وأعجب به وتمنى أن تسجل الأمهات للأبناء فتسهل مهمة الطبيب .

ولكن هذا السجل لى ولابنتى خاص بنا معاً .

أما حديثى معها عن الحياة فإنه يطيب لى أن يكون عاماً .

فأنا فى البيت أم لأبنائى : حنان . . فينان . . أحمد فؤاد .

وفى الجامعة أم لمئات .

وإلى الجميع أتحدث عن قيم الكفاح والمال والصداقة والزواج والأمومة ، ونماذج فى الحياة ودروس من الحياة .

الكفاح

الحصول على ورقة يانصيب قيمتها بضعة آلاف من الجنيهات لذيذ مريح ولكنى لا أتمنى لك يا ابنتى أن تربحى ورقة يا نصيب فمثل هذا المال يذهب بسهولة كما جاء . . . وإن مكث فلا طعم له ولا بركة فيه ... إن خير المال ، المندّى بالعرق ...

لست (غاوية شقا) ولكن الحياة الجادة لا تعطى المال فحسب ولكنها تعطى ما هو أغلى من المال وأثمن وهو المعرفة .. التجربة .. التحصيل .. الحكمة .. وأخيراً السعادة التى هى الراحة بعد التعب .

قارنى بين العصاميين وبين الوارثين أو العاطلين بالوراثة كما يدعونهم. فرق بعيد فى معدن الشخصية ونوعية السلوك والذكاء الاجتماعى الذى أنضجته التجربة والاحتكاك بالحياة فى محيطها الواسع المختلف الأنماط والأشكال .

بل قارنى بين رفاق هؤلاء وهؤلاء ...

الإنسان الجاد لا يعجبه ، وفى الوقت نفسه لا يعجب به ويتعامل معه إلا إنسان جاد . . أما الوارث العاطل ، العاطل من مواهب العقل لا يلتف به إلا الأفاقون والمنحلون والمنتفعون حتى إذا عصروه كالليمونة وغدا فى أيديهم قشرة لا ماء فيها ، قذفوا به وخلفوه « كما » مضيعا يأكله الندم والحسرة ، باحثين عن فريسة أخرى ..

اعملى غنية ، أو فقيرة لتعرفى معنى العمل . . والأمل . . والهدف يتحقق فيه لد هدف جديد . تقول المسيحية (بثمارها تعرف الشجرة) وكذلك الإنسان بنتاجه وإنجازاته يُعرف . الإنسان قلب ، هو الجوهر ،

وقالب هو العلبة . لقد أعلن يونج فشل الإنسان المعاصر فى التربية طالما لم يحقق ذاته . والعمل تحقيق للذات ..

نحن فى الحياة اليومية نظلم أنفسنا حين نختزلها ونعيش دون مستواها الطبيعى بإغراء السهولة وإغراء الاهتمامات الصغيرة من أغلال المهنة أو ماديات الكسب أو أضواء الشهرة . إنه انتحار جزئى . . انتحار غير محسوس .

يقول الناقد الانجليزى ريتشارد صاحب كتاب « أسس النقد الأدبى » (إننا بحاجة إلى من يذكرنا بالمبادئ الهامة) أى البديهيات المنسية.

لا يكفى أن يكون عمل الإنسان نقطة تركيزه بل يجب أن يكون نقطة تجويده . يصف القرآن الكريم الجنة فى قمتها بقوله (آتت أكلها لم تظلم منه شيئاً) أى أعطته حقه فى النضج والرعاية . ماذا لو نهج الإنسان هذا النهج العالى ؟

إن القدرة فى العمل تأتى من تنمية الخبرة . وهذه بدورها تأتى من حيث العمل والاستعداد الطبيعى له . إن الذين يعملون ما لا يصلحون له، يظلمون الناس ويظلمون أنفسهم .

إن الحديث (كل ميسر لما خلق له) فلسفة اجتماعية كبيرة . إن التفوق الخير ، سيادة وأصالة وشخصية .

لقد أكد الإسلام **العمل** كما لم يؤكده دين قبله .

وفى كتاب (الفروسية) لابن القيم قصة صغيرة تدل على تقديسها أهله للعمل فقد نودى للصلاة والشباب يزاولون « الرمى » وارتفع صوت يقول: حانت الصلاة فجاء الجواب :

دعهم إنهم فى صلاة . مع إيمانه بوجوب الصلاة فى حينها .

العمل صلاة وأفراح قلب وأشواق روح نحو الكمال الممكن .

هنا يكون العمل دين ، وعباده ، وولاده ، وإضافة :

دين بما هو معراج إلى فوق (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) .

لماذا كانت حضارة مصر دينية ؟

لأنها عملت فذاقت حلاوة العمل فارتبطت بمعنى الكون . ولهذا تجد أشد الناس إيمانا ، الزارع ، حتى ولو كان أشدهم تخلفاً أو فقراً لأن الزارع يحنو على الأرض ويحنها ويستولدها .

والعمل عبادة بما فيه من استجابة صاحبه إلى نداء الدين الذى دعا إلى العمل والتجويد فيه فى مواضع شتى وكثيرة .

والعمل ولادة بما فيه من احتضان الفكرة وتحقيقها وتنميتها ورعايتها .

وهو إضافة بما ينمي من ذاتية صاحبه ويمنحه من انتساب إليه . بكل ما فيه من خلق وتحقيق قيمة .

هو إضافة بما هو أسلوب . والأسلوب سمة ورؤية وشخصية ووجود مميز .

مثل هذا العمل يجعل الإنسان يحيا حياته بدلا من أن يعيشها . وليس من يعيش كمن يحيا .

أعملى يا صغيرتى فإنه لا يستنكف من العمل إلا عاجز اليد أو خامل الطبع أو محدود الذكاء أو صغير الهمة . . ولكن الدنيا مدينة بعلومها وفنونها وحضاراتها للطامحين المتفتحين العاملين . . أمثال هؤلاء يتركون

بصماتهم على عصرهم حتى بعد أن يرحلوا حين يعبر الخاملون الحياة وما عاشوا حتى لو ظفروا بدعاء (لبيد) فبلغوا الثمانين .

وهل تعدين فى الأحياء من همه كله أن يأكل ويشرب وينام ؟ وهل تفعل الحيوانات أقل من هذا ؟

وما دمنا اتفقنا على العمل يا صغيرتى فلا تخافى من المبادرة أو الخطأ . فإن هروبنا الحاضر من المسئولية سببه كما قلت مرة تركيزنا على خطورة الخطأ عند الأطفال . . كل خطأ عيب .. وخطير .. وجسيم .. لماذا ؟ إن الخطأ طبيعى . . والتجارب والخبرات مجموعة أخطاء .. ولهذا فطفلنا عندما يكبر يخاف من المبادرة والعمل حتى لايخطئ لأنه طبع على جرم الخطأ .

ولست طفلة . . . ولسنا من أصحاب هذه النظرية . . لقد عودناكم حرية الرأى والتعبير . . . حرية الإرادة والاختيار ... حرية التصرف والمواجهة فلا عذر لكم من (تراكمه) خاطئة ضاره .

هل سمعت قول النبى (ص) (من أخطأ له أجر ومن أصاب فله أجران) ما معنى هذا إلا أن يكون قد عنى جواز خطأ التجريب والمحاولة والاجتهاد ؟

لاتخافى من الخطأ أو حتى الفشل فما التجربة والخبرة إلامجموعة أخطاء سابقة تعلم منها أصحابها ، الصواب .

إن الفشل محك الاختبار فإذا تساقطت عليه الإرادة والصلابة كأوراق الخريف فذاك إنسان آخر لا أعنيه بالحديث ... إنه غيرك تماماً .. أما إذا صهر الفشل ، النفس واستخلصها من ترابها كذهب المنجم فإنه يكون حينئذ إشارة إلى الطريق . . طريق النجاح .

إن الفشل فى العمل الكبير ، أمجد من النجاح فى العمل الصغير .

نمى قدرتك على القدرة ، وقوى صبرك على الصبر . . .

بقيت لى كلمة فى حديثى عن العمل . ألا وهى البعد ما استطعت عن الوظيفة إنها رق لمن يعايشها .. وعذاب لمن يقاومها .

إن مجتمع الوظائف بؤرة نفاق وتلون وصغائر وتسول أخلاقى . وكم يرهق إحساس الكريم أن يضطهده حقير ، لأنه لم يرق كرامته على بابه ، متصوراً أن الرئاسة بالتعيين لا بالثقافة والموهبة والقيمة . . هؤلاء آفتهم أو آفة الأحرار معهم ، السلم الوظيفى الذى لا يعرف ، كالآلة الحاسبة ، غير الأرقام دون أن تكون له قدرتها على الضبط والتجرد ..

العمل الحر إذن ميدان رحب معطاء للشخصية الخلاقة والكفاءة القادرة والكرامة التى لا تهون .

إنه توسيع للذات وتنمية لها وانطلاق ولكن لا تخلطى بين الحفاظ على الكرامة وتنمية الذات ، وبين عبادة الذات فإن (الذاتية) ديانة مقلوبة إذ يؤله الإنسان فيها ، ذاته .

إعرفى نفسك .. نعم ، ولكن لتنفتحى بها على الدنيا لا لتستقطبى الدنيا فيها . لا تصنعى قيدك بيدك فإن تاريخ العلوم يقول إن العلم الذى نضج قبل أى علم آخر هو علم الفلك لأنه أبعد الأشياء عن الإنسان كما أن آخر العلوم نضجاً سيكون « السيكولوجيا » لأنه ألصقها بالإنسان .. إنه نفسه .

اعملى لتعرفى طباع النفوس فلا يلتبس عليك الزيف بالحقيقة .

إعملى لتعرفى معاناة العاملين وتعدلى فى أحكامك على الخطأ والصواب

فالجالس على البر « عوام » والنقد سهل على من يتمطى فى الظل . بل إن وثارة كرسيه تغريه بالتهكم من الكادحين أو العنف عليهم .. إنه لم يجرب وأيضاً لم يسمع المثل الفرنسى القائل (إن الذين لا يخطئون هم الذين لا يعملون) .

قرأت مرة عن (فورد) المليونير الأمريكى صاحب مصانع السيارات أنه ألقى بابنه فى المصنع يتعلم ويتدرج من مرحلة إلى مرحلة حتى يتشرب العمل كله ويعرف كيف يديره وكيف يصونه . ولم يهيئ له ، وهو القادر ، مكتباً فخما عليه سعاة وحجاب .

وفى سويسرا بلد (الفندقه) يمر الطالب بكل مراحل الخدمة حتى أدناها وأهونها لكى يكون صالحاً للإدارة .

والأمثلة كثيرة فى كل بلد واع ..

لا تستبدى برأيك ولو كنت صاحبة العمل التى لا ترد كلمتها . . . امنحى ثقتك لمن حولك ، تشحذى طاقاتهم لخدمتك . وادخرى نفسك للمسائل الكبرى حتى لا تستنفد التفاصيل جهدك ووقتك .. فليس من الرياسة أن تدسى أنفك فى كل شئ .

هناك فى الصين ، قمة المدح للإدارة الناجحة أن المدير لا يعمل شيئاً أى يعطى لكل ، مسئولية .. بحيث يسير الجهاز كله فى اتساق وتلاق دون شقاق . وهذا لا يتأتى إلا إذا وضع نظاماً حكيما ، وعادلا .. دقيقا وشاملا فيريح ويستريح وبهذا يبدو فى الظاهر لا يعمل شيئاً ولكنه يعمل .. أو عمل كل شىء .

إن الرياسة شكل تنظيمى ولهذا يقول النبى عليه السلام : (إذا كنتم ثلاثة أمروا واحدا منكم) وهو يعنى التنظيم لا الأمر والنهى ويعنى بهذا أن الرياسة اختيار لا تعيين .

لا تغضبي إلا لكرامه .. وحتى الكرامه احفظيها بالصمت الرفيع .. بالارتفاع بها على المناقشة البنج بنجيه التى تتقاذف الألفاظ فيها كما يتقاذف للاعبون ، الكرة ..

لا تغضبي فكم أوقع الغضب الحساسين فى هفـــوات خاضوا بسببها حروباً ضارية مع محترفى الحسد و الضغينة ..

الغضب تلف فى الصحة ، وضبابيه فى الروية فلا تغضبي إنى أخاف عليك ..

لا تغضبي على الغرباء .. أما الأحباء فليكن غضبك عليهم ، صفحاً ..

وبعد فليس يكفينى أن تنتظمى فى مواكب العاملين ولكنى أتمنى أن تحبى عملك .. أن تؤديه فى سعاده .. إنك تحبيننى .. أحس هذا وأسعد به .. شعور الأمومة والبنوه الذى بينى وبينك ، أحليه بينك وبين عملك فالعمل أيضاً أمومه إذا غذاه صاحبه بعصارة قلبه ، وذوب كيانه .. هنا يغدو الإنسان الفنان أما .. بل يغدو العمل بدوره ؛ أما ، باعتباره مصدر حياة ومصدر قيمة وحب العمل سبيل إلى اتقانه . والعمل المتقن ذروة إنسانية ولو كان حرفه . فاليد إذا استطاعت أن تترجم عن نفس واعيه حساسه غدت قوة خالقة وطاقة حيوية . هنا تكون الحرفة ، حرفنه من دقه ورقه . و ابن البلد يسمى الصانع الماهر الحساس (حريف).

* * *

فمن أروع صور الكفاح التى قرأتها ، قصة مدام كورى ولا يعلم مثل القدوة والمثل العالى . إن السير العالية ذخر الإنسانية كلها . وأحد هؤلاء العالمين مدام كورى تلك السيدة العظيمة التى دفع أبوك كتابها إلى فى إعجاب بالغ لأقرأه .. إنه كتاب مدام كورى أو قصة بطولة علمية

لزوجين سعيدين . . وأبواك لحسن الحظ يا ابنتى يعرفان هذا اللون الفذ من السعادة حين يأويان إلى مكتبتهما يقرآن ويتناقشان ويزنان الكتب ومبدعيها فى هناء روحى لا يضارعه إلا هناؤهما بك تعبثين بالقرب منهما بجوار أحد المقاعد بورقة بيضاء يلقيانها إليك ليشغلاك بها عن قراءتهما . . فينجحان فى شغلك عنهما ثم يعجزان عن شغل نفسيهما عنك . إذ لا يمضيان فى القراءة بضع صفحات ، أو فى الكلام بضع دقائق حتى ينجذبا إليك ، ويلمساك بعيونهما ويعلقا تعليقات سعيدة من الفرح على حركاتك ولغوك وجلستك وورقتك التى تكون حيويتك الطفلة قد مزقتها نتفاً صغيرة يتبرع الهواء بنثرها فى أرجاء الغرفة كلها .

غدا تعرفين القراءة فتذكرى كتاب مدام كورى . . إنه قصة رائعة من قصص الكفاح يا ابنتى . . لقد عرفت مدام كورى ، البلاء طفلة . . عرفته على رهافة حس ، فى القهر . . فى الكبت . . فى الحرمان . . فى البؤس بل كتبته وجها لوجه أمام سرير أمها المسجاة ولما تبلغ العاشرة بعد ! ولكنها عرفت بفطرتها الذكية طريق الخلاص فكابدت وقاومت وتجالدت واستعانت بالدرس والتحصيل حتى انتصرت انتصارا له تاريخ وهو بعض التاريخ . . تاريخ الإنسان : .

ويبدو أن الموهبة كالمعدن النفيس لا تكشف عن نفسها إلا بعد نار تصهر . . هكذا تقول على الأقل قصص البطولة وتاريخ الأبطال . .

لم تكن تشكو وما جدوى الشكوى . . إن أعباءها أحوج إلىّ الوقت كله . . كانت مرفوعة الرأس وإن حملتها الأحداث أحيانا على أن تطامن الرأس الشامخ لتقول للزمن : خط . . ولكنها كانت دائما شجاعة يا ابنتى تعلن ابتسامتها عن إصرارها على المقاومة حتى الغلبة والظفر . . وقد نالتهما . . بعد سنين . .

كانت فى صباها الباكر تكافح من أجل وطنها ومن اجل لقمة العيش . . فى وقت واحد . . وأحدهما وحده يثقل ويرهق .. وكان جهادا رائعا .. أشبه بصبر الرسل وعزم أصحاب الرسالات ..

كانت حرباً ضارية أعداؤها فيها الجوع والحرمان والشظف الجارح .. ولم يكن فى يدها من سلاح غير الصبر . العنيد والجلد الصابر وكم كلفها الصبر . اقرئى بنفسك أيامها فى الحى اللاتينى كيف كانت تعيش فى حجرة السطح مع السماء بلا سقف ، ومع الظلام بلا نور إلا ذبالة من مصباح غاز ؟.. أما الماء فعليها أن تحمله من مكانه إذا شاءت ، كما تحمل الفحم على مرات متوالية إلى الدور السادس كلما لسعها برد الشتاء . . . ومع هذا الضنى كله ، وحدة مريرة باردة لا يقطع وحشتها ظل إنسان .. لقد تجردت للعلم تجرد الصوامع فاعتزلت الناس والمناعم لتخلص إلى الدرس وحده . حقا كان جزاؤها موفوراً ومشهوداً ولكن بلاءها فى رأيى كان أروع .

لقد عاشت حياتها كلها يوماً يوما حتى أيام الشقاء . فليس أعظم فى ميزان الإنسانية من إنسان يصارع الفقر فيصرعه ، وليس أكرم على ضمير الإنسان من إنسان يصمد للحرمان أعواما فى تجمل وصمت يحسبه الجاهل غنيا من التعفف ، قويا من الصبر ، قادراً من إباء واستعلاء . . . وليس أعز على الإنسانية من إنسان تطحنه المحنة طحناً فيخرج منها سليما فى نفسه وضميره ، ويستعدى الطموح على الأيام والحادثات فيظفر .. وهو ظفر يستأدى صاحبه الكثير من التضحيات .. وليس أقرب إلى قلب الإنسانية فى جميع عصورها من إنسان يتلظى فى بسالة فيبكى قلبه وتفتر شفتاه .. فى مثل هذه اللحظات يشف المرء ويسمو فوق اللحم والدم وطبيعة الطين المركوزة فيه ويصير نظما من إرادة ، ووهجا من حماس ، وحنانا من الحب ، ودمعا يجيش ولا يفيض فإذا بصاحبه أشد إشراقا وأعمق صفاء..

وقد كانت هذا كله مدام كورى يا ابنتى ... كانت عقلا عظيما وكانت قلباً كبيرا ... وقلما يجتمعان .

أنا لا أود أن تقرئى قصة حياتها قراءة عجلان فإن مثل هذه القراءة لا تحصى الدقائق الفريدة فى حياة العظيم . وهى لا تغرس القدوة التى أهدف إليها من قراءتك لهذا الكتاب ، خاصة أن الذى كتبته امرأة عن امرأة .. أحدهما أم والأخرى إبنة .. إنها جامعة الأمومة والبنوة تلك التى تجمعنا أيضا الآن .. إن مولدك قد جعل لمثل هذه المواقف شأناً خاصاً عندى . فأنا مفتونة من وجودك بكل ما يتصل بالأمومة والبنوة ، مأخوذة بهما فى كل صورة وعلى أى وجه حتى بين الحيوان والنبات . . . ومن ثم وقع منى كتاب مدام كورى موقعاً خاصا أرجو أن تجده فى نفسك أيضاً . . . فاقرئيه بحب وإمعان لتعرفى كيف يحقق الصبر الباسل المعجزات . . . قفى طويلا يا ابنتى مع العالمة فى مدام كورى . . واحنى عليها فى المعمل بمجامع قلبك كله وهى تنحنى أمام الأجهزة والآلات تعيد التجربة للمرة العشرين . . . اسمعك تقولين إن ثمن المجد فادح . . . نعم هو كذلك يا صغيرتى ، ولكنه خير ألف مرة من حياة تافهة ماحلة لا غناء فيها ولا أثر بعدها على الأيام .

قلبى يدعو الله أن يجعل حياتك خصبة خالقة موعودة بتلك المباهج النفسية التى يسعد بها الخالقون وذوو الإبداع . . . تلك الأفراح العظيمة التى يعيش فيها الموهوبون فى الفن أو العلم . . . قلبى يدعو الله .

صاحبى مدام كورى إلى مدرج السوربون حيث ألقت محاضرتها الأولى بعد وفاة زوجها الصديق . وانعمى الصمت فإن فى وقفتها — ذلك اليوم — وحديثها . . واستهلالها . . فى بعض هذا بله كله بلاغ .

اقرئى خطابها إلى ابنة اختها هانيا . . . اقرئيه يا حبيبتى الصغيرة كلمة كلمة بل حرفاً حرفا إن استطعت . . اقرئيه وتأثريه فإن الذى ينفذ إلى نفسك من خلاله إنما هو وحى مخلوقة نادرة .

أو تصدقين أن هذه القديسة الراهبة فى محراب العلم قد اتهمها بعض صغار النفوس فى دينها بل فى عرضها ! أو تصدقين ؟ تلك التى منحت جائزة نوبل مرتين وتسابقت جامعات العالم ومجامعه العلمية إلى تكريمها ؟ نعم ، حتى هذه أيضاً يا ابنتى تطاولت إليها فى أفقها العالى جائحة السباب الاوتهام !

وهكذا قضى على العبقرية فى كل عصورها أن تدفع للحسد والغيرة ضريبة التفرد والامتياز .

ومن حسن الحظ يا بنتى أن الضريبة على فداحتها لا تعوق دافعيها عن المضى فى طريقهم المرسوم بل لعلها تلهب عزمهم على مواصلة السير . فإذا حصحص الحق ارتفعوا درجات تزيد البعد بينهم وبين شانئيهم اتساعا وغوراً ! فإذا هم قابعون فى الثرى ، وإذا برسل الإنسانية قد بلغوا الثريا نباهة ذكر وسمو مكان .

قدرى بلاءها فى حرب سنة ١٩١٤ فقد صفت إنسانيتها فى تلك الآونة بما لم تبلغه فى أى وقت آخر ... إن الذى يصبر على الويلات فى سبيل مستقبل أفضل ، عظيم بلا شك .. ولكن الذى يخوض الويلات مختاراً من أجل غيره مضحيا فى صمت ، صانعاً المعجزات فى تواضع من ليس شيئاً . . هنا يجل الأمر عن العظمة ليرق إلى القداسة التى تستحق الخلود .

لقد كانت مخلوقة نبيلة يا ابنتى . وفت زوجة أغلى وأعز ما يكون الوفاء ، وحنت أما أرق وأعمق ما يكون حنان الأمهات ، وأخلصت مواطنة — ولم تكن فرنسا إلا وطناً ثانياً لها — كأبر ما يكون الإخلاص للأوطان على الرغم من أن فرنسا لم تفكر فى الإنعام عليها إلا بعد الأوطان الأخرى التى كانت تسبقها دائماً إلى تكريم مدام كورى بالألقاب الشرفية والدرجات العلمية . . ولا أدرى كيف فإن فرنسا تعرف قيمة العلم والفن والنبوغ .

إن الرئيس هاردنج رئيس الولايات المتحدة لم يتجاوز وصفها

بل لعله اقتصد فيه حين قال عنها أنها أدت كل فروض المرأة فوق ورغم عملها الساحق .

نعم سحقها عملها سحقاً حتى ذهبت فى النهاية ضحيته كما قرر الطب بعد أن صعدت روحها إلى بارئها فى زمرة القديسين والشهداء بعد أن دانت الدنيا بعلم عظيم .

* * *

وإليك قصة أخرى . . قصة غنية بالأحداث والمشاهد والعجائب والتفاصيل . . . قصة مثيرة فيها أمل ويأس ونور وظلام ودموع وبسمات وألم وانفعال وصبر وكفاح وجلد وصراع ثم تباور هذا كله بسحر الحب والحنان ليتمثل لنا فى صورة إنسانة كبيرة ندعوها هيلين كيلر مؤلفة كتاب (قصة حياتى) الذى نقله إلى العربية الأستاذ أمين مرسى قنديل .

وفى الكتاب صفحات من بطولة أخرى هى بطولة معلمة هيلين كيلر ، الآنسة صاليفان التى تطل علينا من بين سطوره وقد وهبت عبقرية الصبر .... لقد شقيت هذه الإنسانة الكبيرة القلب فى تعليم هيلين كلمة (ماء) فلم تيأس ولم تغضب حتى بعد أن قابلت الطفلة المعرورة جهدها بعنف وغضب حداً بها إلى إلقاء دميتها على الأرض حطاماً فى غير ندم أو أسف فليس فى عالم الصمت والظلام الذى تعيش فيه ، كما تقول عاطفة قوية ولا حب ولا رقة .... لقد انحنت الآنسة صاليفان على الأرض تكنس ما تكسر من الدمية وتنحيه إلى جانب الموقد حتى إذا فرغت حاولت محاولة أخرى فى تلقين الطفلة القاصرة كلمة (ماء) بطريقة أخرى قدرت صلاحيتها للتعليم وبعثها للسرور فى وقت واحد ... لعلك تتوقين إلى معرفة ما حدث ... ولكنى — سأترك لهلين نفسها المجال لتروى هذه القصة بعد أن عمق الزمن شعورها بها وتقديرها لها .

(أحضرت لى المعلمة قبعتى فأدركت أنها ستمضى بى إلى حيث ضوء الشمس الدافىء فانحدرنا فى الطريق حتى بلغنا موضع البئر ، يجذبنا أرج الياسمين البرى الذى كانت شجيراته تغطى البئر كلها . وكان عندها شخص يمتح ماء فوضعت المعلمة يدى تحت الصنبور فجرى عليها الماء بارداً . عندئذ نهجت كلمة (ماء) على يدى الأخرى فى بطء أولا ثم بسرعة ... فلبثت ساكنة أحصر اهتمامى فى حركات أصابعها ، وإذا بى أشعر فجأة بشعور غامض مبهم شعرت بشىء كنت قد نسيته منذ طويل ، وتولتنى هزة فكرة عائدة إلى نفسى لقد انكشف لى سر اللغة بشكل ما . فعرفت حينئذ أن (ماء) تدل على ذلك الشىء السائل البارد — وما لبثت هذه الكلمة الحية أن أيقظت نفسى وأضفت عليها النور ، وبعثت فيها الأمل والسرور — فقد فكتها من عقالها وأطلقتها حرة . نعم ما زالت أمامى حواجز كثيرة وعقبات جمة ولكنها حواجز وعقبات تزول بمرور الزمن .

غادرت موضع البئر — وكلى تلهف على أن أعرف أن لكل شىء إسماً يعرف به وكل اسم يستحدث لى فكرة جديدة . فلما عدنا إلى الدار بدا لى أن كل شىء أمسه بيدى قد امتلأ حياة ، وصرت أنظر إلى كل شىء بتلك النظرة العجيبة الجديدة التى طرأت على : فلما دخلت باب الدار تذكرت الدمية التى كسرتها وتحسست طريقى إلى الموقد والتقطت ما تناثر من كسارتها ، وحاولت جهدى أن أعيدها سيرتها الأولى ، ولكن عبثاً ما حاولت . فاغرورقت عيناى بالدموع وأدركت سوء ما فعلت ولأول مرة فى حياتى شعرت بالندم والحزن فى نفسى ....

ثم تقول . تعلمت فى ذلك اليوم ألفاظاً كثيرة منها أم ، وأب ، وأخت ومعلمه وهى ألفاظ جعلت الدنيا تزدهر أمامى ، كما ازدهرت عصا هارون وحفلت بالأزاهير . وثق بأنك لن تجد طفلا أسعد منى وأنا فى مهدى مساء ذلك اليوم الحافل بالحوادث ، استعيد من جديد المسرات التى جلبها لى معه ، لأول مرة فى حياتى وتطلعت إلى مجىء يوم جديد .

وتطالعك فى الفصل الخامس من الكتاب صور جانبية وأخرى مثيرة فإن هذا الفصل يقفك على الوسائل التى تعلمت بها هيلين كيلر الكثير من مظاهر كرم الطبيعة ومظاهر قسوتها أيضاً . . . كيف قوت المعلمة النابغة صلتها بالأشياء وعمقت شعورها بها حتى لتحس أنها والزهر والطير وأوراق العشب أخوة سعداء .

وفى هذا الفصل تطالعين كيف استقبلت هيلين وحيدة أول عاصفة من عواصف الطبيعة . إنها متعة حقيقية أن تقرئى هذه القصة ومتعة أكبر أن تقرئى هذا الكتاب لنفسك ولأطفالك ليتعلموا صفات الصبر والتضحية وروح المحبة للناس والأشياء على السواء .

إنها لمتعة حقاً أن تقرئى فى الفصل السادس تحت عنوان (تيقظ الروح) كيف تعلمت هيلين كيلر من مدرستها صاليفان معنى كلمة (فكرى) ومعنى كلمة (الحب) قصص شائق طريف وهو على طرافته يزيد النفس غنى وخصبا ويزيد الحس عمقا ورهافة ويزيد الروح الفا وضياء .

وفى الفصل السابع تقرئين تحت عنوان (التعليم من الكتب والحياة) كيف تعلمت هيلين الألفاظ وكيف تعرفت فى الغاب والحديقة إلى الزهر والطير والعشب والراعى والطنين والغناء . . كيف وجدت فى كل شئ درساً وعبره ووحياً وإلهاماً وكيف علمها جمال الأشياء كل ما فيها من منافع . . كيف تعلمت هيلين الحساب وعلمى الحيوان والنبات كانت طريقة الآنسة صاليفان معها أن تعلمها من الحياة نفسها مباشرة فى إنسانية رحيبة وإخلاص فريد وصبر منقطع النظير ... لقد أحسست منذ الصفحات الأولى بالأثر الكبير لهذه الإنسانة الكبيرة فى حياة هيلين كلير وعزوت إليها كل ما وصلت إليه التلميذة النابغة ولم أكد أمضى فى الكتاب حتى سمعت هيلين نفسها فى ص ٦٥ من الكتاب تؤكد رأيى وتعلنه فى هذه الكلمات البارة الشكور (كانت معلمتى على مقربة منى دائماً حتى لم يكن يخطر ببالى أنها منفصلة

عن شخصى فلا فرق أن كنت لا أستطيع أن أحدد مقدار ما يرجع من سرورى بالأشياء الجميلة إلى الفطرة والغريزه ، ولا مقدار ما يرجع منه إلى نفوذ معلمتى وتأثيرها فى نفسى شاعره بأن كيانها لا ينفصل عن كيانى وأن مواقع أقدامى فى طريقى الذى أسلكه فى حياتى إنما تتابع خطوها ومواقع أقدامها حى فكل ما فىّ من خير إنما يرجع إليها هى فلا موهبة ولا مطمح ولا فرح فىّ لم تكن هى التى أيقظته بلمستها الحبيبة ويدها الرقيقة .

* * *

أما وطننا العربى الكبير فزاخر بمثل عليا للبطولة . ليس ، قصة ، حديثى معك عن النساء العربيات ولكنه اتصال بتاريخنا هو استمداد منه ، وامتداد به فى استشرافة نحو المستقبل . وهذا هو معنى المعاصرة عندى .

ابنتي ونحن نعيش أحداثاً كبرى تصنع تاريخنا وتملي مواقفه .. ونحن نتأهب لمستقبل كبير يجدر بنا أن نستوعب ماضينا لننطلق منه انطلاقة رائعة فإن الغراس الطيب والشجرة المباركة هي التي تضرب بجذورها في أعماق الأرض فتثبت أصولهـــا وتركز فروعها فلا تهزها الريح ولا تقتلعها العاصفة .

ونحن نتأهب للغد يجدر بنا أن نستوعب تاريخنا لنستمد منه الأسوة والحافز ، والمثل ، والأمل . وتاريخنا زاخر ببطولات الرجال من أجدادنا وآبائنا ولكنه حافل أيضاً ببطولات أمهاتنا على مدى التاريخ العربي الإسلامي حيثما رفعت رايه وارتفعت له مئذنة يجلجل من فوقها آذانه الخالد « الله أكبر »

ظاهرت المـــرأة العربية الإسلام في صدر دعوته وفي رأس هذه القائمة المشرقة المشرفة أم المؤمنين خديجة أول من أسلم من النساء آمنت المرأة ممثلة فيها ، بالنبي إذ كفر به الناس وواسته إذ خذله الناس وأعانته بمالها إذ حرمه الناس .

وفاطمة بنت الخطاب فإن ثباتها وتمسكها بالحق كسب للإسلام عمر بن الخطاب .

كانت فاطمة واحدة من العشرين الذين سبقوا إلى الإسلام وبها تحققت أمنية عزيزة لرسول عزيز فطالما دعا النبي ربه (اللهم أعـــز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام).

وكان أحبهما وخيرهما الفاروق عمر بن الخطاب الذي كان إسلامه مفرقاً بين الحق والباطل .

وحين هاجرت الدعوة من مكة إلى المدينة ورفعت راية الجهاد لم تقعد المرأة بل خرجت مع الجيوش تستنفر الهمم وتضمد الجراح وكثيراً ما شهرت السيف وواجهت الموت شجاعة صابرة .

روى قاسم أمين فى كتابه (تحرير المرأة) عن أم عطية أنها قالت غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات ، وكنت أخلفهم فى محالهم ، وأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى وأقوم على المرضى ».

وشهدت أم عمارة نسيبه بنت كعب المازنية غزوة أحد وبيعة الرضوان ويوم اليمامة حيث كانت تقاتل مع إبنها عبد الله وفقدت فى هذه المعركة يدها وجرحت إثنى عشر جرحا .

يحكى كتاب « المرأة العربية » أن نسيبه خرجت فى جيش المسلمين يوم أحد تسقى الظماء وتأسو الجرحى . وكان النصر فى أولها فى جانب المسلمين ثم أحاط بهم المشركون فلم يبق حول الرسول غير قلة ينافحون عنه فانتفضت نسيبه وامتشقت سيفها وحملت على الأبطال — واحتملت قوسها وأخذت تصول وتجول تنزع عن القوس وتضرب بالسيف وحولها من الأبطال على وأبو بكر وعمر وسعد وطلحه والزبير والعباس وولداها حبيب وعبد الله وزوجها زيد بن عاصم فكانت من أظهر القوم أثراً وأعظمهم موقفاً . وكانت لاترى الخطر يدنو من رسول الله إلا صدته عنه وحمته منه حتى قال الرسول عليه السلام (ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دونى).

ولقد رآها الرسول يومئذ وهى تعصب جرحاً ينزف دما فى ذراع ابنها عمارة فما انتهت منه حتى دفعته للكفاح مرة أخرى وهى تقول له : « قم يابنى فضارب القوم وجاهد فى سبيل الله) ويرمقها الرسول بنظرة حانية وهو يقول : « من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟

ومن مفاخر المرأة العربية فى الشجاعة « خولة بنت الأزور الكندى » التى أشاد بها الواقدى فى تاريخه . فإنه لما أسر أخوها ضرار بن الأزور فى موقعه أجنادين سار خالد بن الوليد فى طليعة من جنده لاستنقاذه . فبينما هو فى الطريق مر به فارس ملثم لايبين منه إلا عيناه وهو يقذف بنفسه ولايلوى على ماورائه . فلما رآه خالد قال : ليت شعرى من هذا ؟ هذا الفارس وأيم الله إنه لفارس « ثم اتبعه خالد ، والناس وراءه حتى أدرك جند الروم ، فحمل عليهم واخترق صفوفهم فلم تكن غير جولة جائل حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء وقد جندل أبطالا ثم عاود الكرة فاخترق الصفوف ثانية غير هياب وخامر المسلمين عليه قلق كثير وحسبوه خالدا . حتى إذا قدم خالد قال له رافع بن عميره « من الفارس الذى أمامك ؟ فلقد بذل نفسه ومهجته ! » فقال خالد : « والله لانا أشد إنكارا وإعجاباً لما ظهر من خلاله وشمائله . » وبينما القوم فى حديثهم خرج الفارس كأنه الشهاب الثاقب والخيل تعدو فى أثره وكلما اقترب أحد منه الوى عليه حتى قدم على المسلمين فأحاطوا به ، وناشده ذلك خالد ، وهو أمير القوم وقائدهم ، فلم يحر جوابا فلما أكثر خالد أجابه وهو ملثم فقال : أيها الأمير إنى لم أعرض عنك إلا حياء منك لأنك أمير جليل ، وأنا من ذوات الخدور ، وبنات الستور . وإنما حملنى على ذلك أنى محرقة الكبد زائدة الكمد » فقال خالد : من أنت ؟ « قالت :»

أنا خولة بنت الأزور . كنت مع نساء قومى ؛ فأتانى بأن أخى أسير ، فركبت ، وفعلت مارأيت ! »

وهنا صاح خالد فى جنده ، فحملوا وحملت خولة معهم ، وعظم على الروم مانزل بهم منها فانقلبوا على أعقابهم .

ولم تهدأ خوله حتى استنقذ أخوها لقد نوه بالعربيات المؤرخ ادوار جيبون فى كتابه تاريخ الإمبراطورية الشرقية حيث قال : إن الشجاعة التى

أعربت عنها المرأة المسلمة فى موقعة اليرموك ، وفى إغضون حصار دمشق لأعظم مما يتناوله التقدير .

وهبت الخنساء لموقعة (القادسية) أبناءها الأربعة فلما بلغها خبر استشهادهم قالت فى صبر المؤمن (الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من الله أن يجمعنى بهم فى مستقر الرحمة) .

ففى صدر الإسلام تألق اسم السيدة سكينة بنت الحسين بن على المتوفاة سنة ١١٧ هـ . التى قال عنها دى سلان أحد الكتاب الأجانب :

وكانت أشهر نساء عصرها وأعلاهن مقاما ، وأوفرهن ذكاء وعقلا وأدبا ، وأحدهن جنانا أحرزت قصب السبق فى ميدان الأدب والتف حولها الشعراء والأدباء .

وقال عنها المستشرق الفرنسى بيرون :

سيدة سيدات عصرها وأجملهن وأظرفهن ، وأسماهن صفات وأخلاقا .

كانت السيدة سكينة فى الحجاز فى القرن الثانى الهجرى كما كانت الآنسة لسبوناس فى فرنسا فى القرن الثامن عشر كلاهما كانت فى عصرها قبلة الأنظار ومنتجع السمار كان أدباء فرنسا أمثال «كندرست» و« تركو » و« سلامبر » و« كانديلياك » و « سوارد » و « ديدور » و « هولباخ » يجتمعون فى صالون لسبوناس كما كان جرير والفرزدق وكثير عزة وجميل بثينة ونصيب زينب وأمثالهم من فحول شعراء الأمويين ، يجتمعون فى دار سكينة التى كان علمها بمذاهب الغناء وضروب الإيقاع كعلمها بأعطاف الشعر وقطاف الأدب .

كانت السيدة سكينة تروى الشعر وتنتقده وتجيز عليه وكان بيتها للشعراء والفنانين منتدى .

ومن الطريف أنها كانت مع الفن والأدب أنيقة بل نموذجاً للأنيقات فى عصرها فقد أُثير عنها أنها كانت تصفف شعرها تصفيفاً لم ير فى زمانها أحسن منه حتى قلدتها فيه سائر النساء .

وفى التاريخ الإسلامى متصوفات زاهدات أمثال : رابعة العدوية التى اشتهرت بالأدب والزهد معاً ولها أشعار سائرة وحكم يرددها الناس .. خطبها السراة فأعرضت ثم أقبلت على المحراب .

وفاطمة القرشيه التى نوه بها الشعرانى وأثنى على زهدها وتقواها .

وفاطمه النيسابورية وكانت من الزاهدات لابسات المسوح ، حجت على مرات ماشية من بيت المقدس إلى مكة . وعاصرت الزاهدين : ذا النون المصرى وأبا زيد البسطامى فمدحاها .

والسيدة نفيسه الحسنيه العلوية ، اشتهرت بالصلاح والتقوى والزهد حتى بلغت كما قال المقريزى ، الحد لامزيد عليه وروى أنها حجت ثلاثين حجة فقيل لهـــا : « ألا ترفقين بنفسك ؟ » فقالت : « كيف أرفق بنفسى وأنا فى عقبة لايقطعها إلا الفائزون ؟ »

وكانت السيدة نفيسة تجمع إلى تقواها طول باع فى علم الحديث ، وتفسير القرآن حتى لقد قصدها الإمام الشافعى عندما جاء مصر ، وسمع عليها الحديث ويسوقنا ذكر الزاهدات المتصوفات إلى ذكر المتفقهات فى الدين ومنهن : تقيه بنت أبى الفرج الأرهنازى ولدت بدمشق فى القرن السادس الهجرى ونشأت فى الإسكندرية . أخذت العلم عن الحافظ السلفى ففاقت الرجال فيه .

ورقيه بنت العفيف بن عبد السلام . . كانت فى المدينة محدثه عن شيوخ مصر والشام وفتحت فيها درساً للحديث فأصبحت من مشاهير المحدثين فى الحجاز ووصفوها بأنها فريدة زمانها بين النساء .

وشهيدة بنت أبى نصر أحمد بن أبى الفرج أخذت العلم عن كثير من العلماء وأجازوها أجازة لم تسبق لغيرها ، وقد أخذ عنها كثيرون : وألفت جملة رسائل فى الحديث والفقه والتوحيد ، وغيرها فاشتهر ذكرها وذاع .

ودخلت المرأة المسلمة التاريخ من باب السياسة أيضاً فحين سجل التاريخ على الحاكم بأمر الله نزقه وتقلبه وشطحات له مضحكة كالبكاء سجل التاريخ لأخته « ست الملك » رجاحه العقل وبعد النظر وصدق الرؤية حتى ولاها الناس بعد مقتل الحاكم بأمر الله ، وصية على ابنه « الظاهر » لصغر سنه فأخذت تصرف أمر الدولة قرابة أربع سنوات وهى تعدل فى الرعيه وتنصف المظلومين حتى وثق بها الناس وأحبوها .

ومن النساء فى التاريخ الإسلامى من ارتفع بهن ذكاؤهن من حضيض الرق إلى قمة المجد فتربعن على العروش وتسلطن على أصحابها مثل خيزران التى كانت جاريه فى قصر المهدى فرأى فيها نجابة وألمعية فأعتقها وتزوجها ومالبث إلا قليلا حتى أصبحت صاحبة الأمر والنهى وقد أثنى عليها أحمد أجاييف بقوله :

قد اتفق جميع المؤرخون على أن جميع الأعمال المجيدة ، والأفعال الحميدة التى صنعها المهدى ، بما فيها معاهد العلم التى أكسبته الشهرة منسوبة إلى تأثير زوجته .. . وكانت تستقبل فى دار الخلافة العمال والحكام ، والعلماء والشعراء ... وتعلق بها الناس تعلقا شديداً .

وإذا كان الفن الغربى حافلا بأدب الصالونات الأدبية فقد عرف الشرق هذه الصالونات بل لعله سبق إليها .. وهنا تلوح ولادة بنت المستكفى ... الشاعرة الأديبة التى ملأت الأندلس شعراً وحياة .

ونزهون التى لم يكن فى « غرناطة » من يضارعها فى إجادة الشعر وضرب الأمثال وكان بيتها مقصد الأدباء والفضلاء ولهـا معهم محاورات ومساجلات واعتماد المشهورة باسم الرميكيه فإن أديبها الجم نقلها من حافة النهر إلى نعيم القصر ... فقد حدث أن كان المعتمد بن عباد ملك أشبيليه « راكبا فى النهر ومعه وزيره أبن عمار ، وقد زردت الريح النهر فقال لوزيره أجز :

صنع الريح من المـــاء زرد

فأطال الوزير الفكرة وإذا بامرأة من الموجودات على حافة النهر تنبرى وتقول :

أى درع لقتال لو جمد ؟

فأعجب المعتمد ببلاغتها كجمالها ، وتزوجها . . وأعزها وبلغ من تكريمه لها أن تمنت فى قصره لو عجنت الطين برجليها كما كانت تصنع قديما ، فنثر لها من المسك ما صبت نفسها إليه .

* * *

لقد نبغت المرأة الأندلسية فى الشعر حتى روى بعض المؤرخين أن عدد شاعرات الأندلس بلغ ستين ألفا . . وقد يكون هذا الرقم مبالغاً فيه ولكن تبقى بعد هذا دلالته . . . وكان نساء غرناطة أبرع الأندلسيات فى نظم الشعر وفهم معانيه . . وكُنَّ يدعون بالعربيات . . كما جاء فى كتاب نفح الطيب ، بدلا من غرناطيات لأنهن نهجن نهج العرب فى النظم والبلاغة فيه .

بيد أن حضارة الإسلام بالأندلس لم تخل من نساء كانت لهن مشاركة فى العلوم حتى استغنت نساء الخلفاء والملوك بالطبيبات عن الأطباء والمعلمات عن المعلمين . ومن الطبيبات المشهورات أخت الحفيد بن زهر وابنتها . وقد نوه بعلمها صاحب طبقات الأطباء ولاسيما فى الأمراض — النسائية .

وأما الأستاذات فكثيرات منهن مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري ، قال ابن دحية عنها في المطرب: أديبة شاعرة مشهورة ، كانت تعلم النساء الأدب .

وأما العالمات في الشئون الدينية والحافظات للقرآن ، فلا يحصى عددهن وقيل أنه كان في الأندلس ستون ألف حافظة للقرآن ، ترفع كل واحدة قنديلا فوق باب بيتها ، في الليل ، إشارة إلى أن هناك حافظة ، وذلك من باب التميز لها على غيرها .

وإذا كانت النهضة النسائية في المشرق في عهد الدولتين الأموية والعباسية قامت على أكتاف الإماء فإن النهضة النسائية في الأندلس تسجل اسم « صبيحة » أم الخليفة هشام بن الحكم بل يقترن اسمها بالنهضة العلمية والاقتصادية . وهناك أم الهناء بنت أبي محمد عبد الحق قاضي المرية التي روت العلم عن أبيها ووضعت فيه الكتب .

وحمدة بنت زياد الشاعرة والتي كان لها مع الشعر نصيب كبير في العلوم روت عن العلماء ورووا عنها ومنهم أبو القاسم بن البراق .. وكانت أشهر عالمات عصرها .

* * *

كما تعطر التاريخ الإسلامي بذكر النساء المحسنات كوالدة السلطان الأشرف في القرن الثامن الهجري التي أنشأت المدارس وأوقفت عليها الأوقاف .

وفاطمة بنت المحدث المقري الدمشقي التي يؤثر عنها أنها عمرت مدارس ومستشفيات وأوقفت عليها الأوقاف أيضاً . .

* * *

وهكذا لعبت المرأة النابهة المتعلمة دوراً كبيراً مذكوراً فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية .

وبعد أن استعرضنا فى المرة السابقة موكب الأديبات والعالمات فى التاريخ الإسلامى نقف هذه المرة وقفة ليست بالقصيرة على أى حال عند المرأة العربية فى العصر الحديث . .

والمكانة التى بلغتها المرأة بعامة فى العصر الحديث لم تأت فجأة بل كانت كما يقول الأستاذ على أدهم فى كتابه «نظرات فى الحياة والمجتمع» نتيجة مجهودات سابقة ومقدمات طويلة . ولقد انبعث صوت المرأة بالمطالبة بالحقوق السياسية فى القرن السابع عشر بأمريكا إذ رفعته مرجريت برنت فى سنة ١٦٤٧ مطالبة بحقها فى النيابة وفى القرن الثامن عشر طلبت الكثيرات من النساء أن يكن ممثلات فى المجالس النيابية وفى أواخره كتبت مارى ولستونكرافت كتابها المشهور فى الدفاع عن حقوق المرأة وأخذت أبواب التعليم فى مختلف مراحله تفتح أمامها . .

وكما حجب الرجال فى الشرق بل وفى الغرب أيضاً النساء عن النور والعلم زمناً فإن حركة المرأة العربية بدأت على يد الرجال أنفسهم إذ أن المصلحين فى الشرق آمنوا بأن نهضة المجتمعات الشرقية لا يقوم على الرجل وحده بل على المرأة معه باعتبارها نصف المجتمع . . والمجتمع بدونها أعرج لأنه يمشى على قدم واحدة . أشل لأنه يعمل بيد واحدة فناصرها كمال أتاتورك فى تركيا . . ونادى الشيخ رفاعة الطهطاوى رجل الأزهر فى مصر بتعليم البنات وألف كتابه : المرشد الأمين للبنات والبنين ذلك الكتاب الذى لم يكد يمضى على تأليفه عام واحد حتى تأسست فى مصر أول مدرسة للبنات سنة ١٨٧٢ م .

كان الشيخ رفاعه فى مصر كما كان بطرس البستانى فى سوريا ولبنان رائد هذه الحركة المباركة التى رفع لواءها بعدئذ قاسم أمين فهز العالم العربى من أقصاه إلى أقصاه .

وقد رسم قاسم أمين فى كتابه المرأة صورة لمجتمع كان يطمح إليه فى البلاد العربية بعامة وفى مصر بخاصة .

وفصل قاسم أمين الحديث فى هذا الكتاب عن المرأة والحجاب وعلاقة المرأة بالأمة ثم عن الأسرة .

لقد هز كتاب قاسم أمين (المرأة الجديدة) وكتابه(تحرير المرأة) الجمود القائم وقت ظهورهما فى مطلع القرن العشرين فأخذت الصحف وقتئذ والمجالس والمنتديات تتحدث عن الموضوع وتتناقش فيه وتوالت المقالات بل والكتب فى الموضوع فكتب جورجى زيدان فى الهلال عن المرأة الشرقية ثم ظهر بعد هذا كتاب (المرأة فى الشرائع والتاريخ) وكتاب (المرأة فى التمدن الحديث) لمحمد جميل بيهم وكتاب (تحرير المرأة فى الإسلام) للأستاذ محمد الدين ناصف و(رسالة فى نهضة المرأة المصرية والمرأة العربية) للأستاذ عبد الفتاح عباده .. كتاب أكليل غار على رأس المرأة والنسائيات لجورجى نقولا باز ، (من عبقريات نساء القرن التاسع عشر) ليوسف يعقوب مسكونى كتاب (حول المرأة) لنجوى جمال الدين وشحادة الخورى .

كتاب (المرأة فى عصر الديمقراطية) لإسماعيل مظهر ..

(مستقبل المرأة فى البيت والمجتمع) لمنير الشريف دمشق ١٩٥٣ .

كتاب (أعلام النساء فى علمى العرب والإسلام) لعمر رضا كحاله .

(أثر المرأة فى تكوين الرجل) لمحمد مظهر سعيد .

(أثر المرأة) لفخرى أبو السعود .

(الرجل والمرأة فى كفتى الميزان) لنقولا حداد .

ولم يقتصر الشعراء فى هذا المضمار وأشدهم جرأة فى الدعوة إلى تحرير المرأة شعراء ــ العراق خاصة الزهاوى والرصافى . فالرصافى ينكر بشدة أن يكون الجهل حصناً للمرأة ويرى أن غلق المنزل عليها نيل منها وتهوين ويبرىء الإسلام من تهمة التضييق عليها بل يعزو تأخر الشرقيين إلى تأخر المرأة الشرقية .

ألم ترهم أمسوا عبيدا لأنهم

على الذل شبوا فى حجور إماء

على أن الرصافى لم يتوسع فى مسألة الحجاب توسع الزهاوى الذى كان يتسعر حماسة فى قصيدته الحجاب والسفور .

وفى وسط هذه الضجة ارتفع صوت المرأة نفسها وكان ذلك على التحديد سنة ١٨٧٤ .. حيث كتبت مدام منصور شكور فى الجنان مطالبة بتعليم المرأة وفى سنة ١٨٨٢ تكونت فى الشام جمعية علمية أدبية يجتمع فيها عدد من النساء يتدارسن حالة المرأة الاجتماعية .. وهذه الحركات الوليدة اشتد ساعدها فى القرن العشرين الذى شهد الجمعيات النسائية المختلفة وهيئات الاتحاد النسائى الإقليمية والعامة بل شاهد الفتاة تدخل الجامعة .

ومن الطريف أنه حدث فى عام ١٩٢٥ عندما عين أستاذ الجيل لطفى السيد مديراً للجامعة المصرية أن طلب إليه بعض عمداء الكليات قبول البنات الحائزات على البكالوريا فرأى ببعد نظره أن يستعين على اتخاذ

هذه الخطوة بالكتمان فلا تتسرب إلى الصحف أو يشار إليها فى الخطب حتى يضع الرأى العام أمام الأمر الواقع .. وصحت نظرته فإنه يعد تنفيذ الخطة بإحكام عشر سنوات متتالية بدأ ينتبه الرأى العام . ورفعت الضجة عقيرتها . ولكنه لم يأبه لها لإيمانه بغلبة التطور ومنطق العدل وحكم الزمن وصالح الجماعة .

وصدقت نبوءة لطفى السيد فخمدت المعارضة وخفت الصوت وانداح الصدى وسعت الفتاة — على قدم المساواة مع الفتى — إلى الجامعة .

وفى هذا يقول لطفى السيد فى كتابه المنتخبات : لأننا على يقين من أن التطور الاجتماعى معنا ، والتطور لا غالب له ومعنا العدل الذى يسوى بين الأخ وأخته فى أن يحصل كلاهما أسباب كماله الخاص على سواء ومعنا فوق ذلك منفعة الأمة من تمهيد الأسباب لتكوين العائلة المصرية على وجه يأتلف مع أطماعنا فى الارتقاء القومى .

وكانت البلاد العربية كلها قد استجابت لهذه الدعوة ففتحت الجامعة فى العراق والسودان وليبيا وسوريا وغيرها أبوابها للفتاة العربية التى أصبحت تسهم فى الصحافة والأدب والفن والطب فى جميع أرجاء الوطن العربى .

وقد انبثق الربع الأخير من القرن التاسع عشر عن انتفاضة المرأة العربية وتأسيسها الجمعيات الأدبية والعلمية ومشاركتها فى الحياة العامة خاصة الحياة الأدبية .

أصدرت المرأة العربية ما بين عام ١٨٩٢ — ١٩٥٥ نحو أربعين مجلة

صدر بعضها فى القاهرة مثل مجلة « الفتاة » التى أنشأتها هند نوفل ١٨٩٢ ومجلة « المرأة » التى أصدرتها أنيسة عطا الله ١٩٠١ ومجلة « فتاة الشرق » التى أصدرتها لبيبه هاشم عام ١٩٠٦ ثم مجلة « ترقية الفتاة » التى أصدرتها نبوية موسى سنة ١٩٢٣ ومجلة « الأمل » التى أصدرتها منيرة ثابت سنة ١٩٢٥ وأخيراً مجلة « حواء » التى أصدرتها دار الهلال سنة ١٩٥٥ .

وصدر بعضها بالأسكندرية مثل مجلة « شجرة الدر » التى أصدرتها سعديه سعد الدين سنة ١٩٠١ ومجلة « السيدات والبنات » التى أصدرتها روز انطون سنة ١٩٠٣ .

وصدر بعضها ببيروت مثل مجلة « فتاة لبنان » التى أصدرتها سليمة أبو راشد ١٩١٤ و مجلة « فتاة الوطن » التى أصدرتها مريم الزهار بزحله سنة ١٩١٩ ومجلة « الفجر » التى أصدرتها نجلا أبو اللمع ببيروت عام ١٩١٩ أيضا ومجلة « المرأة الجديدة » التى أصدرتها جوليا طعمه دمشقية عام ١٩٢١ ببيروت ومجلة « المرأة والفن » التى أصدرتها جـانيت إبراهيم سنة ١٩٤٨ .

وصدر بعضها فى دمشق مثل مجلة « العروس » أصدرتها مارى عجمى سنة ١٩١٠ ومجلة « نور الفيحاء » أصدرتها نازك عابد بيهم سنة ١٩٢٠ .

وصدرت بعد ذلك فى حمص مجلة — دوحة الميماس لصاحبتها مارى شقرا سنة ١٩٢٨ كما أصدرت نديمة المنقارى مجلة المرأة سنة ١٩٣٤ فى حماه فحلب فالشام وأصدرت الفيرا الطواف ١٩٣٨ — مجلة — المستقبل — فى طرابلس الشام .

وفى بغداد صدرت مجلة — ليلى — سنة ١٩٢٣ أصدرتها بولينا

حسون كما صدرت فى بغداد فى الخمسينات مجلة الاتحاد النسائى العراقى .

وصدرت فى الستينات مجلة ـ المرأة ـ فى ليبيا .

وأصدرت المرأة العربية فى المهجر مجلة العالم الجديد أصدرتها عفيفة كرم سنة ١٩١٢ ـ بنيويورك ـ أمريكا كما أصدرت سلوى سلامة أطلس مجلة ـ الكرمة ـ سنة ١٩١٤ بسان باولو ـ البرازيل سنة ١٩٤٦ .

وقد اندثرت معظم هذه المجلات فلم يبق منها على الطريق إلا بضع مجلات تقف وراء اهتمامات المرأة زوجة وعاملة وأما وإنسانة لها آمال وآلام .

على أن احتجاب المجلات المحتجبة لا يعنى نكوص المرأة فى مجال الكتابة فقد سجل التاريخ الأدبى الحديث أسماء لامعة فى الحقل الأدبى بين كاتبة وشاعرة وقصاصة كما تجلت مواهبها فى أنواع أخرى مثل الفلسفة والرياضيات والعلوم والنحت والتصوير والموسيقى والدراما . وإن كانت المرأة فى الفلسفة والرياضيات والعلوم أمامها طريق طويل لتقطعه خاصة ما يتصل منها بعالم التفكير المجرد .

ويمكن المرأة أن تعتذر عن جهدها المتواضع فى هذا المجال بأن الفرصة التى أتيحت لها ، كما يقول الأستاذ على أدهم ، لإظهار ذكائها فى الفلسفة والرياضة والعلوم ليست بكافية لقصر مدتها وأن عدد النساء المتوفرات على العلوم جد قليل ، ومن ثم فإنه من الحيف أن يعتبر ما تم فى هذا المجال دليلا نهائيا ومقياساً حاسما ، وهو اعتراض خليق بالرعاية والالتفات .

ويحاول البعض أن يعزو هذا إلى أن ذهن الرجل أرقى وأكبر حجماً من

ذهن المرأة ولـــكن هذا فرض لم يرق إلى مرتبة الحقيقة الثابتة فأنه لم يبث نهائيا أن ذهن المرأة أصغر من ذهن الرجل ، وفضلا عن ذلك فإن العلاقة بين الذهن نفسه والقوى المفكرة لاتزال موضوعا للبحث .

والبعض يعلل تفوق الرجل فى الابتكار بقوة التفكير واتصاله فى غير ونية ولا انقطاع ولكن الواقع أن هذا التعليل غير كاف لأن المفكر لايعتمد على قوة التفكير وحدها وإنما يعتمد فى الأغلب على قوة حصر التفكير وتوجيهه وجهة معينة وعلى جرأة الخيال وتقحمه ، والفكر المبتكر لا معدى له عن أن يتخلص من كل قيد موهن ويرتفع فوق كل نزعة سائدة ويفسح المجال لخياله الطليق ، فالابتكار مرده إلى الشخصية والخيال لا إلى التفـــكير وحده .

وقد توسع البحث فى هذا الموضوع وكثرت الآراء ومن أظهرها وأكثرها مطابقة للواقع الحاضر وقد يحمل المستقبل علامات تحول فيه الرأى القائل بأن المرأة يكثر نبوغها كلما كان المجال أقرب إلى التعيين والتخصيص ، وأدنى إلى العنصر الآلى الصناعى والعامل الإنسانى ، فالابتكار فى الموسيقى أكثر حاجة إلى المقدرة على التجريد من الابتـــكار فى الفنون التصويرية والأدب ولذا قل نبوغ المرأة فى الموسيقى وإن تفوقت فى الغناء ورخامة الصوت مشهورات فى القديم والحديث .. وقد تحسن المرأة الأداء الموسيقى ولكنها لاتجيـــد فى التأليف الموسيقى تماماً كشأنها فى التأليف المسرحى لما يستلزمه هذا اللون من التأليف من قدرة على التجريد .. ولكنها تجيد التمثيل المسرحى إجادة فائقة ، ويزيدها إقبالا عليه وتجويداً له حضور الجمهور اووفرة العنصر الإنسانى فيه وواضح من ذلك أن قدرة المرأة وكفايتها تتجلى فى عالم التعيين أكثر منها فى عالم التجريد ، وفى نطاق العملى أكثر منها فى نطاق المثالى وفى النواحى الإنسانية المحضة أكثر منها فى النواحى ، الكونية الخالصة ، وهى نتيجة تتفق تمام الاتفاق مع أكثر مايرد عن المرأة وتحليل

نفسيتها وتشريح سلوكها فى القصص المأثورة ، والروايات التى تجود بها عبقرية المؤلفين الممتازين .

والظاهر أن العالم الفكرى المجرد لا يستميل نوازع المرأة وهى ليست شديدة الرغبة فى تحدى المألوف والخروج عن الطراز المعهود ، ومن ثم كانت أكثر محافظة من الرجل .

على أن المرأة نبغت فى الأدب ويعلل الأستاذ الزيات هذه الظاهرة بأن المرأة الموهوبة إذا خرجت من نفسها إلى الناس ومن بيتها إلى المجتمع فشعرت بالشعور العام وأسهمت فى الوجود المشترك ، تفتحت قريحتها عن الجزء الإلهى المكنون فى كل نفس وهو الأدب فعبرت به عن مشاعر شعب أو أحاسيس عالم ، مصداق ذلك نجده فى ادبنا النسوى فى هذا القرن على تفاوت شديد فيه بين ربعه الأول والثانى .

وقد ساعد المرأة على هذه الانطلاقة حدوث الهبة العامة فى مصر عقب الحرب العالمية الأولى وسهولة النشر والإعلام بالطباعة والصحافة والإذاعة .

وكانت البواكير الأدبية من الحقل النسائى قد أخذت أكمامها تتشقق عنها فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن فظهرت وردة اليازجيه وعائشة التيمورية وزينب ، وأنيسة وعفيفة الشرتونيتان ولبيبة هاشم وملك ناصف ومى زيادة .

هذا عن المرأة العربية

ومن مصر ، ثلاث نساء ، يعتز بهن تاريخها ، هؤلاء :

الفلاحة المصرية . . . والعاملة المصرية . . . والجامعية وعنهن سأقف معك وقفة طويلة فما بالقليل أن يغدو المرء علامة على طريق الأوطان .

إن كفاحهن يا ابنتي جزء من تاريخ وطنك تمر به المدرسة المصرية مراً عابراً أخشى معه أن تكون فكرتك عنهن مسطحة أفقية وأنا أريد أن تكون رأسية جذرية ذات أعماق . . لهذا سأفرد الحديث لكل منهن تحية اعتراف وكلمة إنصاف .

إلى تلك التى رفع التاريخ المصرى منها مثالا عاليا « للمصرية » عبر الأجيال والحقب فلم تغير الأيام على تقادمها . الرمز ولامعناه الكريم فى النفوس . بل زاده القدم أصالة وجلالا ومعنوية . .

إلى تلك التى غذت الحضارات وصاحبت المدنيات وأعطت كلا ، أضعاف ما أخذت . ثم كانت من قوة الشخصية بحيث لم تعشها الأضواء ، ولم تخدعها زيوف فظلت كماهى سليمة نقية كالمعدن الكريم . كريمة وفية كالنيل الأصيل .. حياتها للخصب والإنتاج كأرضنا الطيبة ..

إلى تلك الصبور الدءوب التى هيهات للبساطة أن تحجب عنا عظمتها . . أنها أكبر من المظاهر وأعظم من الزمن نفسه . . فلا أحداثه ولا آلامه استطاعت أن تغير منها شيئاً . . لوحت الشمس منها الوجه ولكنه بسمرته رائع آسر ، يسحر بالطيبة والوادعة وصدق الفطرة الذى يزكى كثيراً أصباغ الحضارة ومطارفها . وعرقت الأرض منها اليدين ، ولكنهما بمعالم الكفاح خير من أياد كثيرة تأخذ منها ولا تعطى . . وكم بين اليد العليا واليد السفلى . . وضوى الجفاف منها الجسم ولكنه بشموخ قامته وانسراح عوده مجلى للفن ووحى للشاعر ونموذج للرسام . . إنها أقوى من الفقر نفسه وأعظم من الزمن لأن هاتين القوتين على عتوهما لم تغيرا منفردتين أو مجتمعتين جوهر النفس فيها فظلت كرائمها كما هى من وفاء وإباء وبلاء وصبر طويل .

إلى تلك التى امتزجت بوادينا وحملت طابعه فجمعت فى كيانها النحيل طيبة الأرض ، وعذوبة السماء ، وصبر الصحراء الذى لاينفد .

إلى ذات الخمار الأسود التى تنساب بين أعواد الذرة ، وتترفق بين سنابل القمح وتتهادى على البساط الأخضر وتحنو على النيل مع أنداء الفجر وبسمة الشروق .

إلى تلك التى أعلم علم اليقين أنها لاتقرأ لى هذه العبارات ، ولا تصغى إلىّ ولكنى لاآسى فكم أدت إلينا جميعاً وما انتظرت جزاء ولانالته ، على أنى لا أسدى إليها هنا يدا ولاأزجى عرفا ، فإنى إنما أخاطب نفسى حين أخاطبها ، أحيى (المصرية) فى حين أحييها . . المصرية بكرائمها ، بشمائلها ، بطابعها الأصيل ، بأمجادها جميعا . . أحيى أمى وجداتى منذ فجر التاريخ المصرى إلى اليوم .

إلى الفلاحة المصرية .

إلى ذات الجرة التى طالما استوحاها الفن فى وقفتها ، وفى مشيتها ، وفى حنوها على النيل الحبيب تستهديه بعض مائه لتستقى وتحيا . . ومنه كل شىء حى فى مصر . . وطالما أهداها النهر الخالد مع الماء صفات الولاء للوادى ، والوفاء لأهله . . وإن لم يوفوا .

إلى ذات الخمار التى لم تتنصل بعذر الحجاب عن الكدح الصابر والعمل الدءوب ، ولم تتشاغل بالسفور عن البيت ، خدمته ، تدبيره ، أمانيه ..

إلى التى اقترنت حياتها بالأرض . . أرضنا الطيبة . وارتبط سعيها بالحقل ، وتعلق أملها بالنهر . . فى الغدوات والروحات . .

إلى التى عاشت حياتها عبر الأجيال والقرون تدفع وحدها ضريبة الدم أو معظمها ، فهى التى كانت تقدم أبناءها للميدان حين تلهو أخريات وأبناؤهن . . وإذ ريغ حمانا فى القتال صدرت البطولة عنها ، وتمثلت فيها ، واتخذت من (أم صابر) رمزاً للبطولة وعنوانا للفداء . . وسوف يروى تاريخنا عن (أم صابر) وقرية (أم صابر) أمجاداً يدخرها ، ومثلا عريقة لأبناء وأحفاد يستمدون منها عزم النفس ، ويقبسون منها وهج القلب وشعلة الروح ، ويعيشون فى قصتها ، ويخفقون فى الغد لها ومعها كما خفقت قلوبنا بالأمس متحفزة متوفزة مستطارة مع (أم صابر) . .

إلى الفلاحة المصرية .

إلى التى تتمثل قيم الحياة وتسير على سنن منها ومثال وإن لم تحمل الإجازات أو تجيد لغات . إلى التى تجود بنفسها لأسرتها الخاصة : زوجها وبنيها ، وأسرتها العامة . . المصريين . . تهب حياتها للجميع قطرة قطرة .. نبضة نبضة . . ومضة ومضة . . سهراً وعملا ، وكفاحاً . . على الضنى والحرمان .

إلى الفلاحة المصرية .

إلى سيدة مصر الأولى وإن لم يتألق على رأسها تاج ولم يسبق اسمها لقب ، ولم يحط بها ترف قصور ، أو تحية جمهور ، أو ملق نفعيين ومبتغى زلفى .

إن سيادة الفلاحة المصرية من عمل التاريخ ، ومنطق الواقع ، ومقتضيات العدالة والعرفان . وكم ساد غيرها بغير إقرار من تاريخ الشعوب ، أو سند من منطق الواقع ، أومظاهرة من عدالة الإنسان . .

إلى الفلاحة المصرية .

لقد تيقظ إحساسى بك منذ تيقظ إحساس مصر بالفلاحين فعقدت لهم مؤتمرا . . وفكر الناس يومئذ فى الفلاح وفكرت أنا فيك . . فكرت فى الفلاحة المصرية . . وظلت هواجس نفسى ، ومعانى فكرى تطوف بك وتستمد منك ، وتستغرق فيك . . ومن عجب أنى كلما أمتلأت نفسى بمعانيك عجزت عن الكتابة عنك . . فأرجئها لأعيش فيها . . واليوم بعد أن انفض مؤتمر الفلاحين أكتب هذا الذى قد يرقى إليك ، ولم يزايلنى بعد شعور العجز عن الإحاطة ، والعجز عن الوفاء . . الإحاطة بالفلاحة المصرية .. والوفاء للفلاحة المصرية .

كيف غابت عنهم دعوتك إلى المؤتمر الذى عقدوه للرجال الذين صنعتهم يداك . . . وما حيلة الفلاح المصرى بدونك . . ما جدواه . . أنت

التى تهيئين مأواه ، وتعدين غذاءه ، وتنجبين أبناءه . . ثم . . ثم تعملين بعد هذا كله معه فى الحقل . . جنبا إلى جنب ، ويداً بيد ، حتى إذا آذنت الشمس بمغيب قفلتما راجعين إلى الدار ليلقى هو تعبه على عتبتها حيث يجلس يسامر جيرانه ، وتدلفى أنت إليها تعدين العشاء ، وتطمئنين على دواجنك ، وتتعهدين ثروته الصغيرة الكبيرة الممثلة فى الجاموسة العزيزة عليكما معاً .. كل هذا وما استرحت ولا نعمت بعد كدح الحقل بسمر مثله أو حديث... كم تتحملين . . . وكم تتجلدين ..

أنت مصدر الثروة فى ريفنا بل والحضر .. فاللبن ومنتجاته والدجاج وبيضه . . كل هذا من صنع يديك . . أنت التى تبيعين وتشترين فى الأسواق فحركتها معقودة بك ، كما تعتمد ميزانية بيتك عليك .. كان هذا وضعك منذ قديم حين كان يعتمد كيان مصر الاقتصادى والحضارى على الزراعة وحدها . فلما أخذنا بالصناعة تغيرت القيم والمقاييس . . وطغى لغط المصانع وصخبها على هدأة الريف الساجى . . فنسينا أن الصناعة موصولة بك أيضاً ، قائمة عليك فعمالها أبناؤك ، وخاماتها من عندك خرجت ، وفى أرضك نشأت .. وعن إيثار تصدرين هذا كله إلى المدينة ولا تسألين متى يعود.

وينسى الواصفون كفاحك المؤمن وإيمانك الصابر . ويتحدثون عن المحسنات الفاتنات . . وكأنهم ما رأوا إحسانك وما عاشوا من انعامك ! بل يتجاوزون النسيان إلى ما هو شر منه فيرمونك — إن ذكروا — بالجهل والخرافة وأمراض الإهمال وتضييع الأطفال . . ونسوا أنهم هم الذين استنزفوك فأفقروك وجهلوك . نسوا أنهم هم الذين استأثروا بكل شىء لمدينتهم دون قريتك فأقاموا المدارس والمستشفيات ، وركزوا المرافق الحيوية جميعاً فى المدينة وتجاهلوا الريف ! حتى خيراته انتزعوها منه انتزاعاً فجاع وضاع ، والخير موفور والخصب غامر . .

ومع هذا كله يتشدقون باسمك ، ويتصايحون بإصلاح قريتك ويتباكون

على حالها و حالك، ويتذاكرون جهادك المثابر ... ولكن حذارك فإن من وراء هذا كله أضواء الحكم وسلطانه، أو كرسي البرلمان وجاهه أو .. مآرب أخرى . .

إن الحق ياسيدتي لا يمنح ولكن ينتزع انتزاعاً و يؤخذ غلاباً . ولا يضيره شيء كالهتاف والوعود التي تخدره وتوهن من حماسته .. إنه لا يقبل المناقشة فيه ، والمساومة به . . وســـلي مصر هل تجدي شيئاً المناقشات والمساومات والمفاوضات ؟ سليها يأتك الخبر اليقين . .

كم لك من حقوق عليها لم يبلغها بعد ، الأداء . . لقد ردت إليك قطعة عزيزة من الأرض الغالية وهو حلم طالما بهرتك روعته في المنام ثم تكذب الأيام . . أما وقد صدق الحلم وصحت الرؤيا فتعالى نروم أموراً أخرى . .

إن من حقك كمواطنة مصرية أصيلة أن تنعمي بالبيت الصحي والماء النقي ، وأن تقوم في قريتك المدرسة والمستشفى . . . آن للدولة أن تسهر على راحتك بعض سهوك على خيرها ونعمتها . وكم بين الإحسان المطبوع والعرفان بعد نكران .

سيدتي الفلاحة المصرية .

إني كما قلت لك ممتلئة النفس بك . . وكم في صدري من معان وأمان لا يحجبها تقصير ولكن يعوزها التعبير ، فاقبلي مني اليوم هذه المحبة لعل ربي يحققها . . ولعل وطني يباركها .

العاملة . . المصرية . .

نموذج آخر يا ابنتى أحب لك أن تفتحى عينك عليه و تفتحى قلبك له. إنه العاملة المصرية . . تلك السيدة الطاهرة إذ ترفعت على البطالة التى تنتظر عودة العاملين لتعتصرهم وهى مستكينة إلى راحة الخمول أو خمول الراحة .

ألا تظنى يا ابنتى أنها فطرة سليمة تلك التى دفعتها إلى العمل وما بصرها به علم مرشد أو لقنها معناه و دلالته درس حصيف ؟

إنها الفطرة السليمة وإنها الاستجابة أيضاً لطابع العصر فلم يعد الشرق وفى طليعته مصر يؤمن بنظرية الاكتفاء بنصف الأمة و ترك النصف نساء يقضين العمر فى الحجرات .

لقد خلفت العاملة المصرية بيتها المتواضع خلفها و خرجت إلى حياة ساعية إلى المصنع جريا وراء الرزق . فلما عرفتها الحياة تبلورت ، وفهمت ، و فطنت إلى الكثير الذى كان ينقصها و من ثم فهى أصلح زوجة للعامل لأنها تعرف شقاءه ، و تقدر بلاءه ، و تزن جهده عن مكايدة و إحساس .

افرحى به ولها يا ابنتى مكافحة يعصمها الكفاح بطبيعته ، و يحميها العمل برهقه ، من الفراغ و ما يجره على صاحبه من مآس .

لقد أثبتت الحروب والضرورة كفاءتها فملأت الفراغ فى ثقة و جدارة.

لم تعد عالة الآن بل هى إذا حزب الأمر تتقدم لتعول فى جلد صابر و صبر مكابر يتحدى الهوان والحرمان ... أصبحت لها قدرات مختلفة الآن والإنسان يا ابنتى بقدراته .. و بمبلغ حذقه لهذه القدرات.

ومن عجيب أمرها أنها غزت السوق الآن فأقبل عليها، لصفات الصبر فيها والقناعة ، أصحاب المصانع وأصبحوا يفضلونها على زملائها الرجال . .

وإلى متى مظهرها شيئاً فشيئاً بالوفرة والمكانة فابتعد عنها شبح البؤس وأماراته . وأكبر من هذا وأخطر ، تحلت نفسها من ذلتها ، وتخفف رأسها من انكساره ، وصفا وجهها من غبشه وانطفائه .

لقد انبعثت من جديد إذ ذاك تشغر بكرامة الكاشب وعزة الحر .

اصنعي من أجلها شيئاً لو استطعت : يا ابنتي أو مكنتك الأيام . إنها مواطنة جديرة بالخير .

طالبي لهـا بحق العلم فإني أخشى عليها الزلل في زحمة الحياة التي ليس فيها رحمة . إن الخطر كثير وأخشى عليها التردي

طالبي لها بالتربية الصحيحة فهي تحرر وإقبال

طالبي لها بزيادة الدخل ترتفع معنوياتها

طالبي لها بتعدد الفرص وتكافئها تبرز إمكاناتها وإنتاجها .

احملي مجتمعك على احترامها توكيدي في نفسها العزة ، وتنمي في عقلها معنى الكرامة .

احمليها أيضاً على احترام نفسها فإن من يحترم نفسه ينأى بها عن مواطن الشبهات .

وفيها حقها من التقدير المادي والمعنوي يزدد إقبالها على العمل ، وتقوى رغبتها في إتقانه .

ارقبي مواكبها الساعية في البكرة الندية مع أشعة الشمس .. مع العصافير .. مع العاملين من كل لون وصبغه . . . قدسي كفاحها الصابر . . قدري جهادها المثابر .

قدريها بانسانيتك إنسانة ، قدريها بوطنيتك مواطنة .. قدريها بمصريتك مصرية تشارك في بناء الوطن .

باركيها يا ابنتي بمل هذه المعاني فيك . . إنها أدنى إلى قلب مصر من أولئك الثرثارات المتبطلات اللائي يستهلكن مجهود العاملين ولا يعطين شيئاً .

إن تقوى المرء كما تعلمين طريقه الصاعد إلى السماء ، والعمل معنى من معانى هذه التقوى فى الإسلام .

وفد قوم من سفر على نبينا محمد عليه السلام وأرادوا أن يمدحوا رفيقاً لهم عنده فحدثوه عنه أنه كان يقوم الليل ويصوم النهار . فقال لهم فى حكمة الرسول ووعى المصلح : من كان يقوم على طعامه وشرابه ؟ فقالوا كلنا فقال : كلكم خير منه .. إنما أنا أصلى وأقعد ، وأصوم وأفطر . . أو كما قال .

لقد فاق العمل فى رأى هادينا يا ابنتى ، العبادة . ولم لا ؟ إن العبادة بين المرء وربه . وجدواها على صاحبها وحده دون الناس . ولكن العمل مهما تواضع ، قوة دافعة تدفع بعجلة الإنسانية إلى الأمام وتبارك سعيها إلى التعمير .

وكم بين من تكدو تزيد إنتاج العاملين ، وبين من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ؟ . .

إلى المصرية الثالثة التى اختارت ريادة طريق أخرى ملأى بالصعاب والعقبات فلم تحجم ولم تهن بل تصدت فى عزم أبى ، وإرادة مصممة وجنان جرئ . . وقامت الدنيا يومئذ على وقع الوثبة الطافرة والقفزة الظافرة وتصايحت من حولها يمدح قوم ويقدح آخرون . وانتصر لأولئك وهؤلاء كثيرون فلم تنثن عما شرعت فيه ولم ترعو من جعجعة الصياح بل مضت فى طريقها قدماً لاتحفل كالقدر بشىء . ولاأنكر أنها تعثرت من صلابة الصخور فى الطريق ودميت من قسوة الأشواك، ولكنها كانت تنهض بعد كل عثرة وتلتئم بعد كل وخزة ثم تبدأ من جديد .

إلى الفتاة الجامعية التى أرادوها على الاحتجاب فما لانت ، وسدوا فى وجهها الأبواب فما استكانت ، وبثوا فى طريقها الألغام فما يئست ، وسمعت بأذنها التشهير والسخرية فما ابتأست بل كانت فى كل مرة تقف قليلا تقارع الحجة بالحجة وتدافع الرأى بالرأى . . . ثم تبدأ من جديد .

ودخلت الفتاة المصرية الجامعة ... الميدان الذى اختارته للكفاح .. دخلته محجبة ملثمة كالفارس ، وخرجت ، منه متوجة منتصرة كالبطل . وكطبيعة الجلاد دائما لم تسلم من الجراح ، ولكن الرعيل الأول ، ويتكون من أربع فتيات خرج إلى الحياة العامة ليبدأ آخر من جديد !

ساوموها بين الكسب وبين العش فضحت بالثانى وهو نعيمها تحت تأثير المقاومة ، وتحت تأثير أضواء الحياة الجديدة الواعدة ، وتحت تأثير العقد المكبوتة فى نفسها من عبودية (الحريم) . فاقترن العمل عندها بالحرية ، واقترن الكسب فى رأيها بالكرامة ، فحرصت عليه .. وكانت تطوى نفسها على شىء حين اختارت الكسب على العش فى بادىء الأمر . . . كانت ترى

أن تتزود بالمال وتتسلح بالوفرة لتكون أقدر على تحقيق حلمها الأزلى ، وليكون الطلب حولها أرغب . فقد عرفت من عهد الحريم أن الرجال لا يترددون فى التفضيل عليها ، بل وفى نبذها ما لم تقم شخصيتها على دعامة من مال أو جمال أو جاه . وهى أسلحة تحمى الضعف ولا تخفيه . . فلما عرفت العلم استعنت به سلاحاً ، تقوى به الشخصية ، وتصان معه الكرامة ، ويواتى على ضوئه الحظ ، ويوافى فى ظله المال ، ويحسب لها من أجله الحساب كل الحساب .

ولكن حذار أن تتخذى العلم سلاحا أو تتوسلى به إلى الوظيفة فحسب ! إنك بصفتك مثقفة — لا متعلمة فقط — لا بد أن يكون لك أهداف إنسانية تميزك من السواد الذى وصفهم أحد المؤرخين لأحد الملوك بأنهم يولدون ويعيشون ثم يموتون .. لا بد أن يكون لك أهداف إنسانية فإن من حق وطنك الذى أتاح لك فرصة العلم العالى ، وكانت كلمة (المدرسة) عند جداتنا وأمهاتنا حلم خيال وأوهام حالم .. من حق وطنك هذا عليك أن تحيى آلامه فى عمق وولاء ، من حقه أن تحقق آماله فيك ، وآماله فى غد كريم عزيز .

إنك تذكرين حديثى السابق إلى أختنا الفلاحة المطلقية ، وأنت بلا مراء تعرفين عنها ما تلك التى وهبت مصر حياتها وأبناءها منذ فجر التاريخ إلى اليوم ، كما تعرفين أن عدد الفلاحات بضعة ملايين بينما لا يتجاوز عدد الجامعيات بضعة آلاف .. ومع هذا كله فحياتك وحياة وطنك على الفلاحة ، المواطنة الأولى ! وأثرك بالكثير دونها فلا تنس هذه المنة له .. لا تنس .

إلى التى خرجت إلى الحياة العامة أول ما خرجت لتتعلم فتعلمت هى الكثير وتبلورت واستطاعت أن تسجل انتصارات شتى فى ميادين أخرى

غير التدريس التي حلوها في دائرتهم أول الأمر ثم لم يلبث الناس في الحياة ولم تلبث الحياة أن عرفتها طبيبة وأديبة وصحفية وعرفتها الوزارات والمصالح المختلفة فليس بينها الآن مصلحة لم تعهد إليها بعمل ما .

ولكن أذكرني مع هذا أننا ما تعلمنا لكي ننافس الرجال على لقمة العيش ، ولكن لنزيد من قدرات وطننا الكبير مصر ، ولنزيد من قدرات وطننا الصغير البيت .. إننا جميعاً نتعاون لنصل بالموكب الهادر الجاهد إلى هدف كريم .

لا تدعهم يظنون بنا أننا تعلمنا لنكابرهم بغير سند ، أو نطاولهم من غير منطق ، ولكن لنشعرهم أننا نرضى أذواقهم وعقولهم ونكون لهم كفاءً وثقى لسيداتهم والممتازين منهم خاصة — لا يستبقى وذهنه ولا يأسر قلوبهم كالتجاوب العقلي والتشارب الروحي .

إلى التي حاولت أن تجمع بين مشاق العمل ومهام البيت فهي الساعية الدءوب في الحياة وهي الزوج وهي الأم وهي ربة البيت فإذا بها تنجح في العمل نجاحاً يزعج الرجال أو بعضهم ، وإذا بها تنجح في بيتها نجاحاً تتطلع إليه ربات الحجاب ، وإن كان نجاحها في الجبهتين معاً يرهق أعصابها ويضنيها . ومن أجل هذا أحييها وأدعو إلى إكبارها .

قد يحسبون عليها العثار والمزالق التي وقعت فيها بحكم الاحتكاك في سبيل السعي في الحياة والجري في مناكب الأرض ، ولكن هذه العثرات بعينها يحسب عندي لها لا عليها ، فلا بد للتطورات الجامحة ، ولا بد للنهضات المتطورة من كبش فداء ، وقد كانت الجامعية المصرية الأولى كبش الفداء هذا إن جيلنا قنطرة تصل بالأجيال القادمة إلى بر الأمان

بعد أن تهديها تجاربنا وأسباب فشلنا وعوامل نجاحنا ومعالم كفاحنا ،وهيهات للبناء سامقاً .شامخاً أن ينكر الأساس الوطيد وإن غاب تحت الثرى بعيداً عن الشمس .

ولكن يا صديقتى الجامعية أعيرينى سمعك أسر إليك حديثاً .. إن خصوم نهضتك من الرجعيين والمنافسين يشيعون عنك أموراً لا تخلو من الحقيقة وإن بالغت فيها .. يقولون إن من الجامعيات مبتذلات فى ثيابهن ، وزينتهن وحديثهن أيضاً .. مبتذلات حتى فى حرم الجامعة على قدس حماه .. وبعض هذا الذى يقولونه شهدته بنفسى حين كنت مثلك طالبة بالجامعة .. ألا ترين معى أن التبذل شىء غير الأناقة التى تروع بالبساطة وتسحر بالكمال ؟ ألا ترين معى أن الحديث الغث التافه من مخلفات عهد الحريم الذى ثرت عليه ، وخرجت على تقاليده ونشدت لنفسك فوقه منزلة أخرى ؟

ويشيعون ياصديقتى الجامعية أن من الجامعيات مغرورات مستكبرات.. ولا أحسبك تنكرين بعد الذى وعته نفسك من علوم الإنسان أن العلم الحق يحمل على التواضع ولا يجافيه ، وأن الثقافة الرفيعة التى تتسم بها الجامعة لا تتعلق بمظهر كاذب من الزهو لأنها بغناها وحلاها كبيرة بذاتها ، شامخة بنفسها ، وصاحبها كاسى النفس فما هو بحاجة إلى الكبر يموه به نقصاً ، أو يغطى به عورة كما يفعل المتكبرون والحمقى ..

ويشيعون يا صديقتى الجامعية أن من الجامعيات فارغات يتشدقن بالإجازات التى يحملنها ثم تكشف المناقشة معهن والاختبار عن خواء مهين . وأخالك تقولين إن من بين زملائنا الطلبة والخريجين من لا يرتفع كثيراً عن هذا المستوى ، وإن من بين الخريجات من عبرت البحار لتساهم باسم مصر فى أبحاث الذرة .. وإن من بين الخريجات من سعت إلى كرسى الأستاذية ليجلس أمامها الرجال يتلقون عنها ويستضيئون ..

وهذا بعينه أقوله أنا إذا احتدم الحوار .. ولكنى أناشدك أن تزيدى بنفسك رصيدنا من العلم الصحيح والثقافة الحقة يزد عدد الباحثات والأستاذات والشموع ..

ويشيعون يا صديقتى الجامعية أن العلوم النظرية شغلتك عن رسالتك الأولى فى الحياة وواجبك الأكبر .. الأسمى .. شغلتك العلوم النظرية هذه عن الأمومة .. عن الأسرة .. عن البيت مملكتك الصغيرة الكبيرة .. جنتك المثلى . وما كانت هذه العلوم لتشغلك عن هذه الأقداس لولا أنك أنت باختيارك تتشاغلين عنها استهانة ، أو ترفعا ، أو تصونا أو تأقرطا لو صح هذا التعبير .. خذى عنى كسيدة جامعية أن المرأة مهما حصلت من علوم ووعت من معارف ، ونالت من وظائف ، وبلت من مراتب ، إنمـا سعادتها ماثلة فى البيت أولا وآخراً .. مهما تطوحت ، مهما تطرفت ، ما ينفك كيانها ، رضيت أم لم ترض موصولا به .. قد تحاول أن تجعل الوصل خيطاً دقيقا من حياء أو من استعلاء ولكن الخيط وإن دق تراه العيون كلها وتدركه العقول كلها وتحسه النفوس كلها بما انطوت عليه من مشاعر الإنسان ..

خذى عنى كزميلة أن لوحة تعلقينها فى بيتك لتوسع آفاقه وتزيد معناه لهى منبع ثر للسعادة لا تستطيعه زخارف الحياة الخارجية متفرقة أو مجتمعة ..

وأن أزهاراً تنسقها يدك فى ركن من عشك ثم تقرين وسط هذا الجو الفاغم بالعطر ، الناغم بالجمال ، الحـالم بالزهر ، الموحى بالشعر .. هذه اللحظة لو تعلمين أهنأ وأنعم وأصفى من قشور الحياة الخارجية التى تستهوى الكثيرات وتستنفد منهن الوقت والمال ..

بين الإشراف التام الكامل على شؤون بيتك الصغير و تعليم لا يحد وهو مناك بربيبة الجامعة أو قع في النفس وأكرم في العين.

أنا لا أطالبك أن تستنفدي نشاطك ووقتك في أعمال تنهض بها الآلات الأدوات الحديثة أو تغنيك عنها يد عامله مادام هذا في استطاعة ميزانيتك، ولكني أناشدك أن يكون لبيتك المقام الأول، والاعتبار الذي يهون في سبيله كل اعتبار عداه.

ويشيعون يا صديقتي الجامعية أن من بين الخامعات من تنكر الوسط الذي خرجت منه، بل وتتطاول على البيئة التي نشأت فيها وتجحد العوامل المشتركة التي صنعتها وسوتها. وهذه من سائر الأقاويل لا يريد سمعي أن يصدقها، ولا أريد أن أكرهه على تصديقها وإن كنت أخشى أن يكون عليها ظل من الحقيقة.

إلى تعليمك يا صديقتي، كما أعلم أن مهمتك في كجامعية وصلتك، بأن ترفعي المنتطلعين نحوك والمتطلعين إليك وتلتقي بالجامدين، وتثيري الخامدين للحياة، وتشيلي المحرومات حولك. أعظم من أن تحلك أقباس تضيء لها الكل، أهلك وعشيرتك. وما أنت إلا بضعة منهم وليس للسحاب مهنة علا في السماء أن يتفضل على البحر حين يجوده لأنه من مائه.

إني أناقشك الحساب لأني أنتظر منك الكثير وآمل فيك. وما لي لا أفعل وأنا أرى المرأة في الأجيال السابقة كانت ظلا للرجل إذا عظم طال الظل وإذا قمىء انحسر.. فكانت شهيرات النساء أم خليفة أو زوج ملك.

فمن نهض على أكتافهن نوحدها قليلات معدودات وخلدتهن معلقة أو حكيمها... وأقل من القليل الشاعرات والحاكمات والعالمات.

أما الآن فقد أعانت المرأة على نفسها بالعلم وأثبتت وجودها بكفايتك، وأبدت رأيها بعقلك، وأخذت مكانها في الحياة والتاريخ على يديك.

ومن عجب أن تبلغ الجامعية هذا كله بوساطة أبوين هما في الأعم الأغلب غير جامعيين ولكنهما اهتديا بفطرتهما السليمة الكريمة إلى هدف نبيل مشرئبين إلى قبة الجامعة . . ترى أي جيل ننتظره منك أنت ؟ أنت التي توفرت لها إمكانيات شتى ، وثقافات شتى ، وقدرات شتى ، وقدرات ملموسة وأدبية ومعنوية . أي جيل هذا تراه ؟

بودي ألا نحدثك نقدي فإنه التي تحدثك زميلتك في الدرس وفي الاسم العظيم الذي ننتسب إليه (الجامعة) ومن ثم يسرني ما تعاب به الجامعية كما يشرفني حسناتها وأمجادها . . وما هذا الحديث بتحياته وتحاياه إلا صدى مشاعري المشبوبة التي هزتها خطواتك الثابتة ، ومظهرك النابغ في طريقك إلى حرم الجامعة في مستهل العام الدراسي الجديد .

• • •

وحين تزكي الملاحة والعاملة والجامعية الحياة ، تتسلق على جهودهن أخريات من كل واجبي أن افتح عينيك عليهن فإن الفتى لا يعرف الشر أحرى بألا يقع فيه . وأنك لترجو لك السلامة والكرامة .

إن الحياة يا ابنتى مدى واسع زاخر بصور شتى . وإذا كنت قد طفت بك على النماذج ، فإنى أطوف بك أيضاً على صور شائهة لتحذريها ، فإنى لا آمن عليك الشر إن لم تعرفيه عن كثب معرفة الدراسة والعبرة .

أراد أحدهم يا صغيرتى أن يمدح صاحباً له عند عطر التاريخ عمر ابن الخطاب فقال : إن صاحبى لايعرف الشر ، فرد على الفور الرجل المجرب فى حكمة العارف : ذلك أحرى بأن يقع فيه .

أعرفت إذن سر وقوفى بك عند الصور الشائهة ؟ ... حتى لايقع شبابك فيما وقعت التافهات فيه .

والتفاهة خواء له عوامل وله مظاهر . أما العوامل فأكبرها عندى الفراغ .. إنه ثقيل طويل مضيع .. ومن ثم يوصى علماء التربية الآن أن ينشأ الطفل وله قدرات مختلفة ، وله هوايات تستنفد وقت فراغه وتستأثر بشغفه... إنه خوفهم من الفراغ يا ابنتى ومآسيه .

ومن أسباب التفاهة ، الجهل . لست أقصد الجهل بالقراءة والكتابة فحسب ، ولكنى أعنى أيضاً العلم الزائف .. الطلاء .

فالجاهل جهلا تاماً ، التفاهة عليه قدر محتوم لأنه صفر اليدين من العلم من الفن .. وفاقد الشئ لا يعطيه .

وأما زائفو التعليم فتفاهتهم أثقل ظلا ، وأشد وطأة لأن العلم منهم غراس طيب فى مهمه قفر فلا هو أجدى عليهم ، ولاهم حفظوه .

وإذا كان العلم مفخرة تعلو بصاحبها ، فإنه بالنسبة لهؤلاء التافهين مجلبة للمذمة والانتقاص والسخرية ، لأنهم كالعيس التى يقتلها — لغفلتها — الظمأ والماء فى جوفها محمول . أو كالحمار يحمل أسفاراً ثم يظل حماراً .

حذار يابنتى أن تقنعى من العلم بالقشور دون اللباب ... أنفذى إلى أعماق العلم يمنحك سره ويهبك غواليه .

اعرفى له حرمته يبسط عليك جناحه ، ويخلع عليك طابعه وهو عظيم .

ومن أسباب التفاهة **الغرور** . . فالمغرور تنكمش الدنيا فى نظره حتى تصير فى حجم المرآة فلا يرى فيها إلا نفسه .. ثم يعميه الغرور مرة أخرى فلايرى فى صورته إلا مزايا خالصة هيهات أن يبدو معها عيب واحد . . واحد فقط ! .

ومثل هذا المخدوع يابنتى بما يفتعله من حركات يدعو الناس إلى التفتيش عن عيوبه والتشهير به ، كرد طبيعى على التيه الأحمق والاختيال الأجوف ،والتعالى الكاذب ،والتصعير المضحك وما خرق الأرض ولا بلغ الجبال طولا .

ومن عوامل التفاهة **افتقاد الهدف** . فالذى يعيش تائهاً بلا غاية . . بلا رسالة ... بلاهدف ، إنسان تافه لايستحق الحياة . . لأن الحياة نعمة يجب أن يشمل خيرها الفرد والمجموع .

ومثل هذا المضلل الضائع . فى سبيل تبرير فشله ، يقضى الوقت يهون من نجاح الناجحين ويعزوه إلى غير أسبابه ليغطى هوانه على الحياة والناس

ومن عوامل التفاهة أيضاً **افتقاد المثل الأعلى** ! فإن الذى يصعد ببصره إلى القمة يحاول بدوره أن يرقى إليها مرقباً بعد مرقب .

هيا تطلعى إلى أعلى القمم واعزفى جهدك عن الأغوار ، فإن على قدر العزم تأتى العزائم .

ومن أسباب التفاهة **الأمومة الفاشلة** ، فإن الفرخ إذا لم تدربه أمه فى العش على التحليق حط على الأدنى لأنه ناسل الجناح .

زينى لبنيك الكرائم وأهليهم لها ، يسعوا إليها كبارا .

ومن أسباب التفاهة التعويض الخاطئ عن النقص. فإن ذوي الفطرة يستعلي بالتبرير في الفن أو العلم أو الأدب. ولكن الملتوي يغطي النقص بنقطة أكبر منه، فتشوه تصرفاته وأفعاله حتى لتدخل كلها، بلا عناء، في باب التفاهات.

والتافهات أنواع يا بني. منهن الغنية والفقيرة، ومنهن المتعلمة والجاهلة ولكنهن في التفاهة سواء وإن اختلفت المظاهر. مظاهر التفاهة.

فالغنية التافهة فراشة مهمتها لف ودوران.. في البحث عن الأنيق. فإذا احتواها مجلس كان حديثها غثاً زبداً لا فكرة فيه ولا عمقاً. تقطع ساعة قصر امتعالم على الأفلام، وتقدر خيص الزيجات الجديدة وإطراف ثقيل بحوادث الطلاق الأخيرة.

وتقضي تفاهتها أيضاً أن تكون مسخاً مشوهاً لكواكب السينما اللائي تقلدهن تقليداً أعمى. ناسية أن ما تراه منهن على الشاشة، إنما هو تمثيل لا يتجاوزن به استديوهات هوليود، بل إن منهن خريجة الجامعات... ولكنها التفاهة... تفاهة العقل والشخصية معاً.

أما الفقيرة التافهة فلعل عينك لمحتها حين حدثتك عن ذلك السبب من أسباب التفاهة وهو التعويض الخاطئ عن النقص، ولا أعيده فإني أعلم مبلغ وعيك عن ما أقول.

أما المتعلمة التافهة فرغم أن الحديث دار حولها في بدايته، فإن فيه بقية كبيرة عنها أريد أن أفضي بها إليك.

أو تعلمين أن تفاهة المتعلمة تعقد مشكلة جسيمة في مجتمعنا المصري؟ لأنها بمثلها السيء تنفر الشباب من الزواج. وليت الأمر اقتصر عليها إذن لكان أقل الجزاء. ولكنه للأسف يسيء إلى المتعلمات عامة، ويزري بهن

والأجوبة الزائفة . فالمتعلمة التافهة تغدو بزادها الهزيل التي تطبق بالاعناء على الباقيات لأن الشر أسرع مساراً . بين المتأنين . وإذا اقتضى الموقف في التعميم ، انطوى بلا مراء على شك يدفعه إلى الاحتراس المتهيب عند الاختيار والتفضيل .

والمتعلمة التافهة تعوق تحرير المرأة بدلا من أن ترفعها إلى الأمام . وهي بما تثيره من الغط وتندر بوسيلة لاذعة تهبط بالعلم وتضع المتعلمات .

قد تكون من حملة الشهادات ، ولكنها لتفاهتها إذا قرأت فالمجلات المبتذلة ، وإذا تفكهت فالنكت الفجة ، وإذا تحدثت فالقيل والقال والحاجة السوداء وفضول التطفل ، وانتقاض التأجيجات في العمل والزواج من زميلاتها قبل غيرهن .

لاتعجبي يا ابنتي فإن الحياء إذا غاض لايبالي صاحبه شيئاً !!

تعرفين يا إبنتي أن الزي له مدى إن زاد عليه مج وسقط ، ولكن التافهة تنحصر عندها القيم والمقاييس والمظاهر في الزي . وهي تتخذه سلاحاً أيضاً وتحسب لتفاهتها أنها كلما بالغت فيه إلى حد الخروج والتبذل كلما زاد السلاح شحذاً وصقلا .

ثم تعرف بعد لأي أنه مفلول . . وأن المعجبين خدعوها بقولهم حسناء ! وأنهم والمعجبين بالطاووس سواء . فالكل يعلم أنها كهذا الطائر منظر ولا جوهر ، ومظهر ولا مخبر ، وشكل ولا موضوع .

وأخيراً من مظاهر التفاهة المعاملة غير المصقولة ، والحديث غير المصفى والصوت غير المتزن ، والتقويم الأرعن للأشياء والناس . كلها يا ابنتي من أمارات الشخصية التافهة التي لا غناء فيها ولا رواء .

حذار يا ابنتي من التافهات لاتقربيهن مهما كانت ثقتك بنفسك ، وثقة

الناس بك فإن مخالطهن كراكب البحر الذى يصفه ابن المقفع بأنه إذا سلم من الغرق لايسلم من الفرق . .

حذار يا ابنتى من التافهات فإن الوقت معهن مضيعة ، والجلوس إليهن مفسدة و نقيصة .

حذار يا ابنتى من التافهات . تجنبيهن ما استطعت حتى لو جمعك على الرغم منك بهن مكان . . لوذى بالصمت و تعللى بالأعذار لتتحللى من إحداهن وأقول تعللى بالأعذار لأن شر الناس كما يقول رسولنا الكريم من يكرمون اتقاء ألسنتهم .

عصمك الله من التفاهة . وحباك بهبة الفن . و شرفك بمجد العلم . و زانك بحلى الأدب . و نضر بك الحياة و نفع الناس .

الفصل الثالث

فى الحياة

* المـــال
* رأى النـــاس
* قيمة الصديـــق
* كلمة للحيـــاة
* من أعلى القمم
* الدين
* الثقافة

المـال

أتمنى لك رغد العيش أى أن يكون لك مال ومع هذا فالمال ليس كل شيء ... إنه إذا عرفنا فن الصرف أى كيف ننفقه بحيث نجعل منه متعة ونعمة ، سعادة كبيرة ومع هذا فهناك أشياء أثمن منه .

عندما مات الإسكندر بعد أن فتح بلاد العالم القديم أخرجوا ذراعيه من التابوت ليرى الناس أنه بعد هذه الفتوحات كلها خرج من الدنيا صفر اليدين كأى مغمور فقير سواء بسواء .... ولم يفعلوا هذا مع سقراط أو أرسطو .

قليلها

فى ريفنا الأخضر القلب كحقولنا الطيبة يردد أهلونا (القناعة كنز لا يفنى) . ويبطرنا زهو المدينة والمدنية فتضحك من هذا القول ولكنه صحيح بل صحيح إذا كان مفهوم القناعة الشبع لا التسليم بالدون ... القناعة التى تأتى بعد الطموح والعمل فتهيء الوقت والنفس لجنى الثمرة ، لا القناعة التى تزهد فى الطموح خلوداً إلى الراحة واستمراء الخمول ...

الطمع يردنى حتى فى النجاح .. لا تعجبى .. نعم الطمع مرذول حتى فى النجاح لأنه يجعل صاحبه يتسعر رغبة فى المزيد دون أن يهنأ بما ظفر به وما دام المرء لا يعرف الأجل فلا داعى لإعطاء نفسه لغرض واحد مهما كان هذا الغرض حتى لا يمتصه الحماس له فلا يدع له وقتا ليحيا ... وما أبلغ ابن البلد فى أساه حين يجيب على من يسأله عن حاله إذا كان مبتئساً فيقول له : (عايش) .

وليس من (يعيش) كمن (يحيا) ...

قفى طويلا عند قول الرسول الكريم (إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى) . هل قرأت قصة تولستوى (نصيب الإنسان من الأرض)

إنها تتحدث عن أولئك الذين جاءوا بهم إلى أرض خضراء لا حد لها وقالوا لهم : كل منكم يعطى من هذه الأرض ، المساحة التى يستطيع أن يقطعها عدوا .... فانطلقوا يعدون كالريح .. أما أذكاهم فقد توقف حين أدركه التعب واكتفى بما أحرزه ... وأما الباقون ممن غرهم الطمع وأغراهم الجشع فقد طفقوا يعدون حتى بعد أن تقطعت أنفاسهم فما لبثوا أن سقطوا صرعى وما نالوا شيئا غير مترين ، مثوى .

قد تكون القصة رمزية ولكن تبقى دلالتها على الرضا واستشعار القناعة .

ثم ما جدوى البشم ؟ إنه مضرة فى الطعام ، ومضرة فى كل شىء سواء بسواء .. إنه يقترن عادة بالحسد والغيرة فالناس عادة يعطفون على الضعيف ولكن القوى يحاربونه فإن لم يجاهروه بالعداء لسبب ما ، فإنهم يضمرونه...

أنا أرفض العطف ولكنى أشفق عليك من حمى المنافسة وما يتفجر عنها من حفيظة وضغينة ومحاولات هدم قد تكون يائسة ولكن المرء يصيبه منها رشاش .

وهبى أنك وصلت إلى القمة ... إن القمم لها وهج وبريق ولكنه بفعل الضوء المسلط من الشمس على الثلوج التى تغطى هذه القمم .... كم هى قاسية الوحدة هناك والبرودة والخوف ... خوف الانحدار وخوف المنافسة وخوف السقوط ومع هذا ستظل القمة أملا وسيلته العمل والعرق والمبادىء القويمة ... فإن القمة ولكن لا يغرنك المرتقى السهل إذا كان المنحدر وعراً ... ولا يأخذنك صوت القابعين عند السفح ممن ينفسون على الصاعدين نجاحهم ... إياك أن تتلفتى إلى الوراء ... ليكن ردك على الهذر والسباب والنقمة خطوة جديدة إلى أمام ، ومرقبا جديداً إلى فوق ...

فإذا بلغت القمة التى تنشدين فاعلمى أن مسئوليتك أكبر وعملك سيغدو

أضخم فإن من يركبه الغرور عند القمة ويقعد عن الكفاح تنحسر عنه الأضواء بسرعة ويعرض عنه الناس ... وإذا تزاورت الدنيا عن ناجح غدت القمة كهفا ...

ومع هذا فهناك قمم خضراء رءوم دافئة كقلب الأم.. وهذه القمم منى نفسى أن تبلغيها فإن السعى إليها جهاد ، والعمل لها صلاة ، والاحتفاظ بها خلود . . تلك هى **قمة القيمة** .... أن تضيفى إلى حضارة الإنسانية كشفا من كشوف العلم أو تزيدى تراث البشرية فيضا من فيوض الأدب والفن فذلك هو النجاح الحقيقى ، والباقى ، والذى لا يعدله كل ما ضمت الدنيا من عروض وزيوف لأنه نجاح (الإنسان) لا الفرد .

إن النفاق مرذول بميزان الأخلاق ولكن العجيب أن الإنسان يحبه حتى وإن لم يصدقه . . . إن طعمه لذيذ فى بعض الأفواه ولكن الحلوى دائماً ، إذا لم تكن مغطاه ، تجتذب الذباب . فأرجوك إذا أردت الاستمتاع بالنفاق ، أقصد « المدح الاجتماعى » ألا تنساق معه أو تنخدعى به ، خاصة إذا صدر عن الرجال . فكثيرون يرونه أقصر الطرق إلى قلوب النساء . . أشكريهم وانتقلى إلى موضوع آخر بلطف . . . حينئذ يدركون أنك أذكى . . . وحينئذ يمدحونك ولكن فى صدق هذه المرة .

لاتهتمى بلفت النظر إلى نفسك فإن هذا يورطك فى ألوان مضحكة ومزعجه من السلوك ، يورطك فى ملبساك وفى زينتك . . فى جلستك ومشيتك . . فى حديثك . سيضيع منك المعنى الحقيقى لكل شىء لأنك تقفين عند السطح لاتتجاوزينه . . وعندئذ تلفتين النظر حقيقة ولكنه النظر الشزر الذى سرعان مايتزاور عنك وهو مالا أحبه لابنتى . . .

استفت قلبك لا التقاليع أو (الموضه) فالموضه إلا سأم يبغى التغيير وغالباً ما يكون وراءها شعور بالنقص . إذا كانت هذه الموضه ، مصادفة تناسبك ، سايريها لأنك مقتنعة بها لا لأن الأخريات يفتتن بها إلى حد الهوس . لست عبدة الموضه أو التقليد أوحتى (العصرية) فعصرك ليس الموضة وحدها . . . عصرك عصر الفضاء وفتوحات العلم والتقاء الفن بالشعوب .

إن الإنسان يولد فى العصر الحجرى والتربية هى التى تصل به إلى العصر الحديث . فى إدراك القيمة لا فى ارتداء الموضة فإن من يرتدى الموضة فحسب لايزيد على

شماعة خشبية إنما المقصود بالمسافة الطويلة بين العصرين ، رحله فى النفس ومعاناة حقيقية ..

البسى (الجميل) فهو متعة وزينة وكلاهما حق لك فضلا عما يمنحه الملبس القيم (إذا كنت تملكين تكاليفه فى يسر) من ثقة لصاحبه .

على أن البساطة فى ذاتها جمال .. إن العصفور كما يقول أستاذنا المازنى لا يغير ثيابه ولا يبدل أفواف ريشه ولا يكون فى رأى العين مع ذلك إلا جميلا .

عندما تخرجين إلى الحياة وتعملين لتنجحى ، لا تجعلى قيمتك رهناً برأى أحد فيك مادمت مرتاحة الضمير إلى ما تفعلين وما دمت واثقة فى الله وفى نفسك فإنك إذا كنت على شىء وفيك البذره الواعده وفيك اللمسة المقدسة لمسة الموهبة ... إذا كان من حظك هذا كله فلن يضيرك شىء ... إن الفنان الأصيل لا يدخل فى حسابه الناس مدحوا أم قدحوا ... إنه يعطى على طريقة النبع أو البلبل ... هذا يتدفق بالماء وذاك يرقرق الغناء لأن فى التدفق والرقرقة حياتهما وسعادتهما ..

أعرف أن التقدير يسعد الإنسان ومع هذا لا تستجديه ... إن لم يأتك حباً وكرامة فلا كان ... إن العمل الكبير يحمل فى ذاته جزاءه وسيأتى يوم يعرف فيه الفضل مهما احتجب فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ...

كونى مطمئنة ... وارتفعى فوق الأحداث . هل رأيت زهرة الكلا كيف تقف شامخة .. عمود زمرد صاعد طموح به شوق وتتوجه زهره (ملفوفه لف) . وفى وسطها شمعة ذهبية لا تبكى لأنها لا تمسسها نار .. أن العوم فى الأحداث مهارة وقدرة على التوازن وهو شىء غير الطفو

على السطح أو الغوص فى القاع أى الغرق من الجهل بالسباحة . وهنا يصير الحدث ، حادثة .

إن مثلنا الشعبي يقول : الشجاعة صبر ساعة . ويمضى الأدب الشعبى يقص قصة الأصبع أى المتصارعين اللذين جعل كل منهما أصبعه تحت ضرس زميله وكان التحدى من يصرخ أولا ... وصرخ أحدهما فقال له الآخر :

ـ لولم تصرخ أنت لصرخت أنا ... فهو يحس ولكنه تجلد .

إن الشاطر حسن فى الأدب الشعبي هو الطموح البعيد وقدرة الاحتمال والإصرار . وإنسان بلا طموح وإصرار بيت بلا نافذة وكأنه بيت الطاعة .

لقد أعطى كارليل ، كتابه الكبير عن الثورة الفرنسية إلى صديقة لتقرأه قبل أن يدفع به إلى المطبعة وأخذته السيدة وجلست فى بيتها أمام المدفأة لتقرأه ... وغلبها النعاس فسقط الكتاب فى النار واحترق !!

وعرف كارليل بالطبع ... و ... ثم كتب الكتاب مرة ثانية .

هذه يا ابنتى هى السباحة فى الأحداث ... ولو ندب حظه لامتصته اللحظة بدلا من أن يمتصها .

مرة أخرى أقول لا تعلقى قيمتك على مدح الناس لك . سئل مرة الأستاذ العقاد عما وصل إليه فعزاه العملاق إلى عدم اكتراثه برأى زائف مدحا أو قدحا مما أعانه على المضى فى الطريق ... فالواثق من نفسه لا يستمد قيمته إلا من قيمة ذاتية ومن عمله ... هل كان يعلم ويحلم معاً ، صناع الحضارة على طول التاريخ الإنسانى بكل هذا التمجيد الذى كللت الدنيا به أسماءهم بعد قرون الزمان .

العمل المخلص لا يضيع وكم يكون نبيلا إذا ترفع صاحبه على الجزاء الزائف ... على الثرثرة والكلام ...

إن الكلام الجميل أندر من الحجر الثمين كما يقول « بتاح حتب » فلا يبهرك المدح الكثير فإنه رخيص . . .

إن الزهد الحقيقي نعمان لاحرمان . . . وأنا أعنى بالزهد أن يكون عندك في داخلك شيء أحسن مما في الحياة العادية فتؤثرينه بالتفضيل والاختيار إن إدراك القيمة واحتواءها غنى طائل . . .

حضرت الوفاة ابن الفارض فرأى الجنة التي وعد بها المتقون برؤاها وحلاها فبكى وقال مخاطباً ربه (إذا كانت منزلتي في الحب عندك ما رأيت فقد ضيعت أيامي . . .)

ولكن الزهد في المدح ، الذي أحدثك عنه لايعني أنك تغبنين مادياً فالتقدير المادي للعمل وثيق الصلة بكرامة صاحبه . . . ثم من أين يأتي المال وهو عصب الحياة ؟

إياك والغيبية في تفسير الأشياء خاصة النجاح . لاتهوني من نجاح الناجحين فالفاشل وحده هو الذي يعلق أخطاءه على مشجب الحظ . . وإلى الحظ ينسب الفاشل نجاح أهل القمة .

ياعزيزتي من جد وجد حتى الحظ إنما هو توفيق الله . كان (جيته) إذا رأى أثراً جميلا قال : (أفتخر بأني إنسان) لأن الشاعر الألماني العظيم كان يرى نفسه في مبدع الأثر . . . فكل عمل إنساني كبير محسوب للإنسانية كلها . . . وهي نظرة رحيبة مضيئة لاتعرف الحقد أو الحسد بل تبارك أعمال الآخرين وتتهلل لرؤيتها بنفس راضية محبه . . .

لا أحب أن توصف زهرتي النقية بالغيرة التي يثيرها في النفس ، التطلع إلى الآخرين وأن ينفس عليهم (المتطلع) ما عندهم . . . إنها سوءة بغيضة وضارة . . . ولايبرىء منها إلا المصالحة مع النفس أي أن

يعمل الإنسان بأقصى حدود طاقته هو ولا عليه أن يعمل كالآخرين أو يبزهم دون أن يملك وسائلهم . . .

اسجدى لله شكراً على ما وهبك من مواهب العقل والقلب واستهديها ما عندها تعطاك الكثير ولا عليك بعد هذا ملاحقة الآخرين . . .

* * *

نقى نفسك من الهلع والطمع فهما صفتان تسخطان الإنسان تقبلى الحياة كما هى ما دمت لا تستطيعين تغييرها . لاتجزعى من ألم فهو دليل إحساس وحياة . إن الذين لا يتألمون موتى وإن أكلوا وشربوا . . . حتى الطين عندما تصهره النار يصير فخاراً جميلا . وعندما يتحول الطين إلى خزف يصير فداديين روح .

وفى درب الحياة اكبحى ، ما استطعت ، ثورة نفسك فإن الشجرة المشتعلة تصير وقودا بينما يعطى الهدوء فرصة للتفكير والتصرف . . كم فى الوداعة من كنوز . . انها تملك السيطرة حين يفقدها العراك . . .

لاتكثرى من الجدل فالجدل يقتل الحب ولا يعنى هذا أن يكون أسلوبك فى التقبل تسليما وانصياعا جادلى بالتى هى أحسن . . ناقشى فى موضوعية لتصلى إلى اقتناع . كان برتراند رسل يقول : أرسطو كارثة على البشرية لأن الناس ظلوا طويلا بعده يكذبون أعينهم ويصدقون أرسطو .

لاتقبلى شيئاً على علاته بل حاولى أن تبرئيه من علاته .

لاتعذبى الخاطىء باحتقارك فما به من عذاب يغسل بحرا من الآثام . . نقى أن الإنسان لايختار الخطيئة ولكن الآخرين وحظه العاثر وراء ترديه فى حمأتها . . . لقد عبر جسراً من الشوك والضن والرفض والإغراء . . وأخيرا اليأس . . . الخطأ نقص من الحب . كان سقراط يقول :

(العلم فضيلة) أى أن الإنسان لا يخطىء عمداً وإنما هو نقص فى الوعى أو العلم أو التجريب .

ويؤيد هذا ، الآية الكريمة (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) .

الخطأ جهل لا جرم .

لا تجرحى مشاعر إنسان مهما كان ذنبه فأهلنا فى الريف يقولون (يكفى العايب عيبه) . . . يكفى المذنب ذنبه . . . أضيئى شمعة فى الظلام لأشقياء الروح فإن من يأخذ بيد هؤلاء أقرب إلى الله من قديس .

ثم . . . ثقى أنه لا يوجد إنسان شر خالص . . . يحكى الإمام الغزالى أنه رحل طفلا فى قافلة تجار فهاجم القافلة ، اللصوص وسرقوا أمتعتها . . وسرقوا فيما نهبوه ، مخلاة الغزالى التى تضم كراساته . فسار وراءهم فلحظته عين كبيرهم فقال له :

— ما الذى جاء بك ؟ فقال له : أريد الكراس .

فضحك شيخ المنصر وقال له : العلم فى الرأس لا فى الكراس .

وهكذا تعلم الغزالى فى تلك اللحظة درساً نافعاً من شيخ المنصر . . . وهنا نتعلم بدورنا معنى (خذ الحكمة ولو من أهل النفاق) .

أرأيت ؟ لا يوجد إنسان شر خالص حتى شيخ المنصر .

إن اخوان الصفا يصفون الإنسان بأن فيه من كل حيوان وليس حيواناً . .

وفى دروب الحياة احرصى على **الصدق** . . . يقول الشاعر الإنجليزى كيتس الصدق جمال والجمال صدق .

وأقول الصدق قوة واحترام فالإنسان الصادق قوى فليس عليه ما يخاف منه أو يخشى إطلاع الناس عليه . وهو قوى باحترام الناس له ولو

كان مخطئاً . . . فما بالقليل أن يعترف الإنسان بخطئه . . . إن الكاذب مشغول دائماً ففى سبيل تغطية كذبه يقع فى كذبه ثانية . . . ويظل يكذب فى محاولة تعميه أو تغطيه .

لست بصدد تسميع الوصايا العشر فأنت صادقة وما بى حاجة إلى أن أقول لك (لاتكذبى) . ما أريد أن أتحدث إليك فيه ، إنما هو الصدق فى معانيه الكبيرة . . . صدق العاطفة وصدق الفن وصدق التعبير . . . أقصد أن يكون الصدق أسلوب حياة وأسلوب شخصية .

وفى دروب الحياة احرصى على التواضع فالتواضع قمة الكبرياء . كان « سيزار » يوقع على لوحاته : تلميذ بيسارو . وبيسارو لايرقى فى عالم الفن إلى قمة سيزار ولكنه تواضع العالم . . والطالب . إن الأستاذية الحقة هى العمل الكبير لا اللقب الكبير . وكان القشيرى يعلق على تعريفات الباحثين لأى معنى من المعانى بقوله : (كل تكلم بما سنح له .) أى الحقيقة الكبرى علمها عند الله .

قيمة الصديق

لو استطعت أن تكسبي صديقاً كل يوم فافعلي دون تردد . . أقول (لو) لأن الصداقة الصادقة شيء عزيز كالأمجاد الكريمة .

الإنسان خامة . . وتشغيل الخامة هو الصداقة .

فرق بين الطين وبين الإناء .

إن الصديق قد يفوق الأخ .

الأخ قرابة دم .

والصديق قرابة روح .

أما أن يكون الأخ (صديقاً) فهنا قمة إنسانية .

وهكذا كما ترين ياصغيرتي ، ليست الصداقة أمراً سهلاً . إنها تحتاج إلى وقت طويل وتمحيص وتأكد واختبار صعب ... فليس كل من أغرقك بالكلمات المعسولة التي لاتعني شيئاً ساعة حاجته إليك ، صديقاً . . .وليس كل من بالغ في مدحك وإطرائك صديقاً . . وليس كل من أولم لك لمنفعه يرجوها حتى ولو لم يفصح عنها بعد ، صديقاً . . . وليس كل من أقبل عليك لأن الأيام مقبلة ، صديقاً .

الصديق هو الذي يظل إلى جانبك دائما لايتغير .

الصديق هو الذي يزهو بمحاسنك ويحنو على أخطائك . . .

الصديق هو الذي يؤمن بك بلا غرض أو مقابل .

الصديق هو الذي يحفظ غيبتك ويصادق من صادقت ويعادي من عاديت لأنه يعتبرك نفسه أوجزءاً نفيساً منها .

الصديق هو الذي يفرح بخيرك ويأسى لشجاك . .

الصديق هو الذى يفتقدك إذا غبت ، ويسرك ويسر بك إذا حضرت .

الصديق هو الذى يلتمس لك المزايا والحسنات لا ذلك الذى يتصيد لك الأخطاء ثم يروح يشهر بها . .

الصديق هو الذى يصدقك . . يرى أخطاءك نعم فما من معصوم غير الله ولكنه يطلب إليك برفق وحنان الإقلاع عنها لأنه يغار عليك . لأنك فى عينه نقـاء خالص فلا يريد أن تشوبه شائبة ولوكانت هنـات لا زلات .

الصديق هو الذى لا يحوجك إلى طلب معونته عند اللزوم حتى لا يخدش كبرياءك بل يبنطها سخيه كأنه لم يفعل شيئاً .

هذه بعض الصفات الجوهرية فى (الصديق) .

أرأيت كيف تكون الصداقة كلمة كبيرة عميقة ؟ ولكنها تتردد كثيراً فى غير موضعها حتى حسبها بعض الطيبين شيئاً بسيطاً سهلا .

فإذا ظفرت بـ (الصديق) فتحسسى حاجاته إلى الرعاية و المودة والعطف المعنوى والمادى فإن القلب الإنسانى يقتله الظمأ . . .

قد تسعد الصاحب لفتة صغيرة أو مجاملة رقيقة أو هدية بسيطة وكلها على صغرها تعطى الحياة طعماً حلواً ومعنى أحلى .

يقول يونج فى كتابه عن رجل العصر الحديث إنه ، إنسان العصر هذا محتاج إلى أربعة : التقدير ، الأمل ، الإخلاص ، الحب .

وهى أشياء لا يستطيع أن يعطيها له العالم النفسانى أو حتى رجل الدين ولكنه الصديق يستطيع أن يعطى هذه الأربعة على الأقل .

أرأيت أن (الصديق) يفعل الكثير ؟

* * *

هناك لون آخر من الصداقة . صادق علومك ولا تتلقيها كأنها فرض أو واجب بل تودى إليها وأنت تتعلمين . لشد ما أتمنى على الله أن يهبك فى دراستك (قدرة تعاطفيه معها) فإن محبة العلم لذاته تخفف ثلاثة أرباع المشقة فى طلبه .

لقد أتيت إلىّ يوما تقولين إن إحدى مدرساتك لا تقبل من فصلك إلا نص المادة حرفيا فقلت لك بل افهمى فهما مركزاً يحصر النقط حتى لا تهرب منه نقطة ثم عبرى من عندك خاصة وأن «عربيتك» سليمة مستقيمة مؤديه... قلت أخشى ألا أحصل على الدرجة النهائية لمجرد خروجى على القاعدة وعدم التزامى بحرفية النص فقلت : لا تهم الدرجة بقدر ما تهم الطريقة ... المبدأ .

إن الصم لا يبقى منه شىء خاصة بعد الامتحان .... إنه عملية تفريغ من، وإلى ... لست (فاعله) ولكنك طالبه ... وطلب العلم ظمأ عذب لمن يعرف سره ... وهو عند العارفين لا يفرغ بانتهاء الدراسة ولا يقف عند باب المدرسة أو الجامعة ... إنه ممتد ما امتدت الحياة ... إنه يكبر مع الأيام ... وكلما تعلم المرء، علم مدى جهله إلا إذا كان مغروراً فسرعان ما يتجمد ويعلوه الصدأ .

إن المذاكرة فن ولهذا لا تعجبى إذا سمعت أن تلميذا لا يترك الكتاب من يده ولا يترك المؤخرة أيضاً فى ترتيبه لأن المسكين يعامل العلوم كأنها أمتعة للرص بل يعامل عقله الإنسانى كأنه (درج) ... أما أنت فأملى فيك أن تعاملى العلوم كأنها (روح) لتتجاوب روحك معها ويتمثلها عقلك وتصير جزءاً من نسيجه فيغدو تفكيرك كحديثك مضيئا لأن فى داخلك مركز إشعاع .

هذه هى المذاكره من الناحية المعنوية

أما من الناحية المادية فإن المذاكرة عملية تنسيق وتجميع أى أن الموضوع

الواحد يجمع الطالب اليقظ كل ما يتعلق به فى مفكرة واحدة مما يكون متناثرا فى أكثر من موضع فى الكتاب الواحد أو الكتب المتعددة وبهذا يتكامل الفهم والمادة . وهو فى الامتحان ضمان لكمال الإجابه وسرعتها مما يتوفر معه الوقت والطمأنينة معاً ...

صادق الأشياء لتحسنى إستعمالها برفق .

صادق الحيوان فقد يتألم ولا يبين . معلقتان فى الشعر الجاهلى أقف عندهما طويلا من إيثار . معلقة زهير بن أبى سلمى لأنه فيها إنسان ومرقف ، ومعلقة عنترة لعاطفته العميقة نحو حصانه الذى هم أن يكلمه .

صادق الكون كله . ففى الطبيعة تتلاقى الأضداد وتتحد الاختلافات . فرحة ، أن ترى عيناك التلاقى فى التضاد . ومصادقة الكون تعلمك هذه الرؤية .. لاحظى البرتقالة بعد تقشيرها . التضاد فصوص البرتقالة . أى تكوين وتكميل .

إن ورقة الشجر ليست ورقة .

والحجر ليس حجراً .

إنه رمز ... أغنية ... رقصة .

فإذا استطعنا أن نضبط أنفسنا على هواها .. على إيقاعها ، صرنا الرمز والأغنية والرقصة .

يقول القديس (سانت برنار) ما أعرف من علوم قرأته فى الحقول والشواطئ ... فى شجر الزان والبلوط .

إن الأحجار والأصداف تعلمنا أكثر من أى معلم .

ومثل هذا قاله حافظ الشيرازى .

ان العالم ياصغيرتى ليس مجموعة أشياء كقطع الماكينة. إن العالم كلمات الله التى لوكان البحر لها مداداً لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربك ولو أمده بحر مثله.

ولهذا دائماً تبدو الطبيعة متجددة نضرة عندها الكثير لتعطيه كل مرة مهما تعددت المرات .

ليس فى الطبيعة موت لأنه ليس فى الطبيعة شئ لا معنى له . . . حتى التغيير لايعنى الموت ولكنه يعنى التطور وهو حياة جديدة لاموت .

صلى الطبيعة تصلك . . وسوف تظفرين بالكثير يوم يكون بينكما وصل ووصال . مثل هذه العلاقة تعيد البهجة إلى الأشياء التى تطفئها العادة. . . . إنها الرؤية المتجددة التى تنفذ إلى جوهر المرئيات . ولأمر ما فرق الله بين النظر والبصر وبين الأذن والسمع . (لهم آذان ولكن لايسمعون بها).

إذن السمع ليس الجهاز السمعى ولكن النفاذ إلى دبيب الصمت.

إن التذوق حوار خلاق وألاق بين الرائى والمرئى إستشفاف واستشراف .

قال واطسون صاحب الفلسفة السلوكية الذى كان يقول أعطنى طفلا أعطه لك كما تشاء : نابليون أو . . . أو . . . حسب السلوك . . قال واطسون للفيلسوف ماكدوجالد صاحب نظرية الفلسفة الإستبطانية :

— أن فلسفتك فلسفة الـ Easy Chair أى الكرسى السهل المريح فرد عليه ماكدوجالد على الفور :

— وإن فلسفتك ينقصها الكرسى السهل .

وأراه على حق فإن الاسترخاء بمعنى التأمل رخاء للأعصاب .. راحة وواحة . . . رحمة . إن الآية الكريمة (ألم نشرح لك صدرك) لا تعنى السرور ولكن انفتاح القلب للحقيقة . . .

والكون حقيقة كبرى .

والكون حقيقة كبرى . . الكون شكل وعلاقة ومداق . والرؤية نافذة على جديد رائع . . ثراء لا حد له . . الرؤية خبرة تعرف القيمة . . إن الأحجار الكريمة فى خاماتها الأولى لاتجذب ولكن العين الخبيرة هى التى تميزها وتمنحها الصقل والتكريم . فالجواهر هى المعانى المستكنة فى ضمائر الأشياء فإذا نفذت الرؤية البصيرة إلى ضمائر الأشياء وطالعت معانيها ، انفتح الطريق إلى النور والحلوة .

يقول «امرسون» : (ليس فى الوجود مادة خسيسة إذا وقع عليها الضوء)

الكون يا ابنتى نبع ثر للمعرفة . يقول سنيكا : (عندما تستلقى على ظهرك فى غابة وترى السماء والشجر ، يتسلل إلى كيانك الإحساس بوجود الله).

الحال نفسها لو تأملت كهفاً وسط جبل مملوء بالتجاعيد ، محوف بفعل عوامل الطبيعة ، تسرب إلى عقلك الإحساس بالدين ، وتسلل إلى سمعك حديث عذب من منابع الأنهار ، وسرى فى كيانك شعور غامر بوجود الله .)

كم يوحى التأمل ؟ إن التأمل هنا ، عمل ، لا كرسى سهل .

أليس غريباً أن (سنيكا) هذا كان معلم نيرون ؟

ترى هل فشل نيرون فى التلقى ؟

أم فشل الأستاذ فى التوصيل ؟

إن حياة كل يوم بزحامها تختزل وجود الإنسان حين توزعه فى الاهتمامات الصغيرة ولكن الإنسان لابد له ، من أجل صفاء روحه ، أن يتجرد بعضاً من الوقت ، من كل ماليس له قيمة . . . ليعيش إنسانيته كلها . . ليعود إنساناً كاملا وكان جزءاً من إنسان . ولعل هذا يفسر الآية الكريمة (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) . (٤٤ك الإسراء ١٧)

الجبل لايسبح ، والحجر لايسبح ولكن تكوينه يلهم حين المشاهد وقلبه التسبيح .

حكى ألدز هكسلى عن النجار الصينى (تشناك) أنه نحت من الخشب حاملا موسيقياً رائعاً . ولما سأله الأمير مبهوراً : كيف صنعت هذا؟ قال :

عندما أكون على وشك البدء فى عمل مثل هذا أخلص نفسى من كل ما ينتقص من حيويتى (معسكر شخصى) وأمضى أياماً فى هدوء لأخلص عقلى . . . ثم أياماً أخرى أنسى فيها الأجر ... ثم أنسى الشهرة . . .

ثم أفقد الإحساس بأطرافى الأربعة !

ثم أنسى البلاط الملكى .

ثم تتجمع خبرتى وتتمركز .

وهنا أخرج إلى الغابة واستحضر قدراتى فى مناسبة مع قدرات الخشب. إنه زواج بين الإنسان والمادة . . إنه تجميع النفس ولملمة شتاتها .

• • •

والآن هل عرفت ياصغيرتى وصديقتى معنى مصادقة الكون ؟

إن العيون الجميلة ياحلوتى ، تكون أروع إذا كان لديها القدرة على الرؤية المبصرة وإدراك الخيط والخط السارى فى الكون كله .

بقيت كلمة للحياة

لقد حدثتك كثيراً ... وأحسب كل أم تفعل هذا .... إنى أسكب نفسى عليك ... أرش على طريقك الدعاء والبركات ...

بقيت كلمة... هذه الكلمة ، فى الحقيقة ، الحياة صاحبتها . فالحياة خير معلم . لقد تخرجت من الجامعة ونلت من الشهادات أعلاها ولكن الحياة علمتنى أكثر .

علمتنى الحياة أن أموال الدنيا لا تشترى سلام النفس .. الطمأنينة .. الرضا .. ومن الغريب أن أغلى الأشياء هذا ، من الممكن أن تمنحه كلمة خضراء ... لمعة عين .. لمسة حنان ... مناغاة طفل ... رفيف زهرة... دعاء أم ... شكر عرفان ... معونة إنسان .

علمتنى الحياة أن الإيمان مرفأ ترسو عليه بشرية الإنسان بأوهامه ومخاوفه وأحلامه أيضاً . ولا يؤنس الإنسان شيء كصلته بربه (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) مهما حاق فى الفضاء وهبط على سطح كوكب أو آخر فما أوتى من العلم إلا قليلا ...

إن فضائل علوم الحياة ، الإيمان بالقوة الأعظم ، التى تعطى من الطين ، الوردة والعنبة .... التى تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ... وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى .

الإيمان بالله وحده : عزة وثقة ورسوخ . إن كلمة الله أكبر إذا اعتنقها الإنسان عقيدة لايخضع لمن هو دونه . (الله أكبر) رافعة وجدانيه إذا قالها قائلها عن إيمان فإنه لايهن ولايهون .

علمتنى الحياة أن الصمت فن كبير ودرس كبير فكم كلمة ندم عليها الإنسان ولم يفته بالصمت شيء .

علمتنى الحياة أن ليس كل ما يلمع ذهبا فمن الناس من يعجبك قوله

وهو الند الخصام . ومن الناس من يفهم الحضارة على أنها شطارة أى وضع غطاء ذهبى على الناب ، وغشاء وردى على المخلب .

علمتنى الحياة أن لكل إنسان صغر أو كبر ، قيمة . ومن هذا المنطلق يجب أن يعامل الإنسان، الإنسان . إن الذى ينظر إلى الناس نظرة سطحية قريبة يجد فيهم كما قلت مرة موضوعا للتصنيف والتقسيم حسب الفروق التى تبدو لعدسته الصغيرة . ولكن أولئك الذين يرتقون إلى قمة المعرفة ، يرون من فى السفح أشباها إذ تدق الفروق حتى تكاد تتلاشى ....

علمتنى الحياة أن الإنسان مهما عاش ، عمره على الأرض قصير ولهذا يجب أن يعيشه بالعرض أيضا فلا يهدره بالتفاهة آنا ، وبالقلق حينا ، وبالصراع مرات ...

علمتنى الحياة أن الرحمة ترياق . أن الله حين قال الله الرحمن الرحيم فإنما هو إعلاء للرحمة . وكان من الممكن أن يقول الرحمن العظيم مثلا ، أو المنتقم الجبار ، ولكنه اختار الرحمة دون سائر أسمائه الحسنى .

وهل سمى الرحم إلا من الرحمة . ليس اعتباطا أن تكون الأم أرحم الناس .

حتى القاسى يستحق الرحمة لأنه محروم من النور .. نور الحب .. القاسى ليس إنسانا كاملا . إنه كسر إنسان لأنه موتور ، داخله مشروخ ... إنسان غير سليم .. ولم يتكامل ذاتيا ...

لقد كرم الله الإنسان حين استهل القرآن الكريم بفاتحة تقتصر من دون الموضوعات الكبرى على ما بين الله والإنسان متوجاً هذه العلاقة بالرحمة تظلل الإنسان بالطمأنينه من لدن (الرحمن الرحيم) .

علمتنى الحياة أن الجدل يجب أن يكون موقف اختيار لا شهوة انتصار.

حتى لا يخلف فى نفس الآخرين مرارة الهزيمة حتى لو كان على حق . إن هواة الجدل خاسرون وإن كسبوا .

إن السمع نوع من الـــكرم ... إستضافة رأى الآخرين .. إن حسن التلقى ، فن .

علمتنى الحياة أن الإيمان بالقيم الباقية والتعامل معها يرفع الإنسان إلى قيمه وقمة .

علمتنى الحياة أن النفاق قماءة ... ضعة وضياع . والمرء حيث يضع نفسه .

علمتنى الحياة أن العلم أغلى الثروات ولـــكنه كالزرع يحتاج إلى رعاية ... وحتى من يفعلون يعرفون أنهم ما أوتوا من العلم إلا قليلا . سئل عملاق الأدب العربى الأستاذ عباس محمود العقاد وهو فى السبعين من عمره :

وهبت عمرك للقراءة فهل قرأت ما تتمنى وما قدرت لنفسك فى أول الحياة ؟ فأجاب : قرأت ثلاثين فى المائة مما قدرت لنفسى أن أقرأه .

علمتنى الحياة أن يوماً بغير إضافة فى عقلى أو عطائى غير محسوب من العمر .

علمتنى الحياة أن هناك أشياء كثيرة أغلى من المال والمناصب : الذوق مثلا .

الذوق بمعناه الواسع من إحساس وائتناس بالرائع والجميل .

إن التذوق استمرار احتواء لما فى الدنيا من جمال وهو لا يحصى .

وإن التصرف . أى ذوق السلوك يكسب الناس . والقلب الإنسانى أغلى مافى الوجود .

وإن التلطف أى دماثة الأسلوب فى الكلمة والحركة يكسب المكان والمكانة .

علمتنى الحياة أن معاملة الناس فن جميل وقدرة . وكم من الأبواب تفتحها الوداده ورقة الحاشية ولطف المدخل والكلمة المصقولة والموعد الدقيق واحترام الآخرين .

علمتنى الحياة أن الموهبة وسام السماء أغلى الأوسمة والنياشين .
الموهبة عطاء سماوى لا تشتريه أموال الأرض .

قد تعطى الأرض شهادة أو منصباً أو ثروة ثم يزول هذا كله ويظل صاحب الموهبة هو الباقى .

علمتنى الحياة ألا أفزع من السن فالسن رتبة إذا كان مشغولا بفن وفكر ، ومشغولا بالفن والفكر .

علمتنى الحياة أن الكبرياء غير التكبر .

الكبرياء ارتفاع على الدنيا ، وامتناع عن الصغائر .

الكبرياء شموخ نفس شفة عفة

ولكن التكبر عجرفة بغيضة ، وغطرسة ممقوته وحجاب ضيق يعزل صاحبه وراءه فلا تهوى إليه الأفئدة بل تنفض من حوله .

علمتنى الحياة أن الرحلة ثراء للنفس والعين . إنها جامعة الحياة .

علمتنى الحياة أن الفنون ليست ترفاً بل ضرورة فبدونها تجف الحياة مهما كثرت فيها الوسائل الحديثة .. إن رؤى الفنون إرهاصات لأكبر فتوحات العلم . آقرئى للأديب الفرنسى جول فرن صاحب قصة ٢٠٠٠ فرسخ تحت الماء . إنها رؤية مبكرة للغواصة .

لقد تنبأ هذا الأديب بالصعود إلى القمر .

والأمثلة كثيرة .

ما أكثر ما علمتنى الحياة

وما أقل الذى أعرفه ...

الدين

موضوع كبير سألخصه لك فى كلمات قليلة ، فإن التفاصيل تملأ مجلدات فى لغات شتى .

الدين ليس الطقوس على وجوبها . إنه **إنسانية وموقف وسلوك وحضارة**: لاتوجد حضارة بلا دين . . . وإذا وجدت سرعان ما تتشقق بعد أن يقتلها الظمأ من ظمأ الروح . وهو ما وقعت فيه الحضارة الغربية الحديثة بعد أن أطلقت العنان للذهن وحده . . . إن السويد وهى من أكثر بلاد أوربا تمدنا وأعلاها مستوى معيشة . . . السويد أزحم بلاد أوربا بالعيادات النفسية .

وأحس مفكرو الغرب بأزمة الإنسان الأوربى فهتف أندريه مالرو وزير الثقافة الفرنسى فى عهد ديجول (موضوع القرن الواحد والعشرين سيكون : **الدين**) .

ويقول « يونج » : (الروح خط أو مبدأ حياه يجاهد لبلوغ ذرى مضيئة فوق إنسانية الإنسان .)

ويقول : (إن الذهن يمتهن الروح حين يحاول أن يمتلك ميراثها وهو غير مؤهل لذلك بأى حال لأن الروح شئ أعلى من العقل) .

إن الذين ينتهون إلى الذكاء ولا يتعدونه ، يسمونهم (الحمير الذكية) **Intelligent asses**

* * *

الدين . . . **أخلاق** . سأل رجل رسول الله عليه الصلاة والسلام كيف أسلم ؟ قال : آمن بالله ثم استقم . . .

ولم يزد الرسول الحكيم .

وقال فى مناسبة أخرى معرفاً المسلم : (المسلم من سلم الناس من لسانه ويده) فى محاولة لإرتقاء بالإنسان على سخف القول وعنف العمل .

الإسلام **تصرف وتلطف وإخلاص وخلوص** ... إن الدقة فيه لون من الورع ، وإن الرقة سيال من الحنان .

ليس الإسلام يوم الجمعة وليست المسيحية يوم الأحد. إن عز الإسلام فى دعوته المستمرة إلى احترام العقل ووجوب الشورى وإن عز المسيحية فى موعظة الجبل .

ليست الصلاة فى الإسلام هى القيام والقعود ولكنها صلة بين الله والإنسان ، ووصل بين الإنسان والناس بما تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .

إن الوضوء فى الإسلام وضاءة نفس وطهارة روح قبل أن يكون غسل الوجه واليدين والقدمين .

وإن السجود ليس وضع الجبهة على الأرض ، ولكنه سجود القلب حين يتجرد من الصلف متواضعاً فى حضرة ذى الجلال .

الدين **ليس التعصب** لعقيدة ، أو لون ، أو جنس . . الدين إخاء ، ونقاء . فالأديان كلها تبارك الخير فى القول والعمل . . . والأديان كلها تحث على الفضائل . والإسلام بما هو خاتمها وتمامها ، تفرد بجعل الإيمان فيه ، بالله وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر فى سماحة رحيبة ، ورحابة سمحاء .

الدين سلام فى النفس ، وسلام فى التحية ، وسلام حتى حين يمر المؤمنون باللغو ، كراماً .

إن الدين باابنى شفاء للنفس من نزعات الشر ، و نزغات الشيطان . والشيطان الذى أعنيه هو النفس السفلى حين تكون الملائكية هى النفس العليا ..

والشفاء هو المحبة فى المسيحية ، والبر فى الإسلام وقد عرفته الآيات فى بلاغه و بلاغ : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين و فى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ؛ والصابرين فى البأساء والضراء ، وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

هذا هو الدين .

الإنسان المثقف يا ابنتى هو الإنسان الشامل الذى يجمع فى ذاته المحدودة عوالم لا محدودة ... كل العصور ... كل الأماكن .. ليس مثل كانديد فولتير الذى علق على (مفيش) مفيش قلعة غير قلعة كذا . . مافيش بنت غير الحبيبة . . .الخ مفيشات كانديد .

المثقف الحقيقى : قلب كبير . . وعقل كبير .

وخيال كبير أيضاً .

إن الخط المستقيم بين نقطتين لا خيال فيه ولا خصوصية عنده . إن قصة يوسف فى القرآن الكريم بما ترسم من أغوار النفس الإنسانية ، استطاع أحد المشايخ أن يجمعها فى جملتين فى هذه النادرة .

رووا أن جمعاً من المشايخ القراء أرادوا حين طاب لهم الطعام أن يصرفوا زميلا لهم عنه أو يشغلوه على الأقل ، ليستأثروا بالطعام كله فقالوا له : أرو لنا قصة يوسف .

وفطن إلى غرضهم فقال : ولد ، تاه ، وأبوه التقاه .

ثم انقض معهم على الصحاف دون أن يضيع وقتاً طويلا .

فى رد الرجل ذكاء وظرف ولكن ليس فيه فن أو جمال تصوير . . وطراز آخر بالطبع أولئك الذين يرسمون أبعاد النفس البشرية ، ممن يسميهم « أمرسون »

أن يطوف الإنسان فى أجواز النفس البشرية . . مقدرة .

الثقافة هى الدين والعلم والفن والتاريخ والحكاية والأسطورة . . . التعليم ليس الثقافة فالخيل والقرود عندما تحمل على الإتيان بأعمال إنسانية فإنها تأتيها بعد تدريب طويل ، ليس الإنسان أو الفنان . ومدارسنا من هذا القبيل فهى

تعلم « صفات فنية » فى الأدب والرسم والنحت لا الفن.. والثقافة هى الإبتكار لا التكرار .

الثقافة آفاق وأعماق . وإذا كان النجار يستعمل أكثر من آلة ، فأولى بالمثقف أن يعرف أكثر من علم . . أكثر من لون من ألوان المعرفة فى عملية تنمية للنفس فإن لم تثمر المقررات الطويلة ، نماء النفس فلاغناء فيها .

إن الثقافة ليست التخصص ، لأنه إذا إقتصر أو إقتسر ، إنغلاق أو جمود عند نقطة واحدة ضيقة كما أوضح هذا شبنجلر فى كتابه تدهور الغرب .

إن الطبيب بالجزء الذى يعالجه فالذى يعالج الأذن أو الصدر أو العين ليس عالماً كاملا وكذلك المهندس وسائر المهن الأخرى مهما درت على أصحابها . ولكن المثقف هو الإنسان الكامل بما مازج نفسه من ثقافات وإدراكات وقيم شتى تغنى وحدة البشر .

تكامل الشخصية هو حلم الإنسان المعاصر الذى يعانى تشقق الشخصية .

الثقافة هى « كيف » الحياة فى مجموعها . . . هى إنسانيتها .

الفصل الرابع

السؤال الصعب

السهل

* كيف جئت ... كيف أتيت ؟
* فن الاختيـــار
* اختيـــار زوج
* الزوجة المثاليـــة
* الأم المثاليـــة
* من حديث النبوة
* قرأت لك

كيف جئت . . . كيف أتيت ؟

الفتيات والفتيان فى مثل سنك يتوقون إلى أن يعرفوا كل شيء عن الحياة .. ويدور الهمس بين رفاق العمر وتتخافت الأصوات ويعلو الضحك المكتوم ، وتتقارب الرءوس ، ويطل الفضول كله من العيون وتدمى الشفاه من العض عليها من الخجل المصطنع أو الحقيقى . .

لاداعى لهذا كله ياصديقتى فالأمر أبسط من هذا .. لاتلتمسى معلوماتك عن الجنس من أو عند صديقاتك فهن غريرات لا يعرفن أكثر منك بل قد تكون معلوماتهن ، أو ، هى كذلك ، خاطئة مشوشة فيضللن تطلعك .

إننا نؤمن بالنور ولهذا نشترى لكما عامدين ، الكتب التى تتحدث عن الجنس على أسس علمية واضحة ... إقرئى هذه الكتب بحرية تامة فخير لك ولنا أن تعرفى طبيعة الجنس بلا زيادة أو نقصان .

مرة ، كنت أتحدث عنكم كما تفعل كل أم ، وإذا بصديقة تسألنى وماذا تصنعين فى السؤال إياه ؟ تعنى سؤال الجنس . كيف ولدنا ؟ كيف أتينا ؟

الحقيقة أنى لم أسمع هذا السؤال من حنان أو فينان .. وليس معنى هذا أن الموضوع لم يخطر ببالهما لأنهما حين يعرض هذا السؤال من آخرين لاتبدو عليهما الدهشة أو الفضول . . والسر كما أعتقد ، وأنا أقرب الناس منهما ، وإليهما ، هو أن «حنان» وجدت الجواب فى دراستها العلمية بكلية العلوم .. ووجدته فينان فى قراءاتها الواسعة المتعددة والمتعمقة أيضاً فهى تهوى العلوم الإنسانية وإن كان تخصصها العلوم السياسية .

أحمد هو الوحيد الذى سألنى هذا السؤال ومن حسن الحظ أنه كان فى ذلك الوقت غارقاً فى قراءات مختلفة عن الأزهار والنحل والفراشات

فسهلت مهمتى إذ سألته بدورى كيف تتزاوج الأزهار ؟ فشرح المسألة فى دقة وتفصيل . . . فقلت له : وهكذا يتم الاتصال عند الإنسان .

وإقرأ التفاصيل فى مادة (الحمل) فى الدائرة . . وكانت فى يده أجزاء من دائرة المعارف البريطانية والباقى أمامه فى مكانه من المكتبة .. ففعل ولم يعد للسؤال كشاعر المهجر « إيليا أبو ماضى » ، مرة ثانية .

ويبدو أن « أحمد » قرأ كل شىء فى الموضوع ولم يتجاوز الحادية عشرة .

كثيرون من أدبائنا حكوا عن أنفسهم أنهم تعلموا الجنس من كتاب ألف ليلة وليلة .. وأنهم كانوا يقرؤون هذا الكتاب مختبئين حتى لاتقع عليهم عين الوالد أو الأهل .

وحكى لى أديب كبير صديق أن والده كان يحرم الكلام البسيط العادى أمامه ، وهو فى الخامسة عشرة من سنه حتى لا تسمع أذنه (الكلام الفارغ) . . . ويضحك الصديق ويقول : أنه من جراء هذا التزمت كان يعرف وهو فى الثانية عشرة كل شىء عن الجنس أو (الكلام الفارغ)..

إننا ياعزيزتى ، لحسن حظك من غير المعجبين بالنعامة وذكائها المشهور . . . ولهذا يسعدنا أن تقرئى ، فى وضح النهار ، قراءة علمية عن الجنس فالمعرفة خير عاصم .

كما أننا لا نريد أن ندير الأسطوانة نفسها على سمعك فنلقى فى روعك أن الجنس على إطلاقه عيب وفاضح وشر . . إلخ . مما يزعجك ويورثك فزعاً وخوفاً يترسب فى نفسك الآن ثم يمتد أثره فيما بعد فقد رأيت وفى أسرتى ، قريبات أصبن باضطراب عصبى عند زواجهن نتيجة الرعب المكبوت . . .

إن العيب هو إمتهان الجنس والإباحية . . أما الزواج الذى يباركه الله والعرف والأسرة فالجنس فيه معناه امتزاج اثنين واتحادهما ووسيلتهما إلى إعتلاء العرش . . عرش الأمومة والأبوة .

إن الرى العقلى ضرورة للإنسان الواعى . . ولكن الرى العاطفى ضرورة أيضاً من ضرورات الكائن السوىّ رجلا كان أم امرأة حتى لايذبل أو يشيخ قبل الأوان وحتى لاتتعقد نفسه أو يضطرب جهازه العصبى أو تسود نظرته إلى الحياة والأحياء .

إن العزوبه هروب ، وحكم بالإعدام . والوحدة فى برودة الصقيع خاصة فى خريف العمر بعد أن يستنفد الانطلاق ، شباب الجسم . . . وكم ندم أصحابها ولكن بعد فوات الأوان . . . ومن هؤلاء النادمين أناس وصلوا فى الحياة إلى أعلى مراكز الشهرة والنجاح فلم يغن عنهم هذا شيئاً .

ولعل من أكبر عوامل انتشار الإسلام فهمه لطبيعة البشر والتقاءه بهذه الطبيعة يرضى حاجاتها فى غير تعسف أو تزمت أو عنف . . . حتى المثالية فيه تبدأ من الواقعية . . .

ومن طبيعته أنه أحل لنا زينة الحياة الدنيا . . . والمال والبنون زينة الحياة الدنيا . والبنون أسرة . . أب وأم .

هذا الإسلام لارهبانية فيه بل جعل الزواج آية من آيات الله . (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) وفى تفسير (من أنفسكم) —بفتح الفاء— نسبة إلى النفاسة والقيمة . . . وما أبلغ التعبير وأذكاه ، وأزكاه فى قوله (لتسكنوا إليها) . . . إن الزواج سكن وأمان وسلام للنفس والجسم . . إنه راحة وواحة

يستريح به ويستريح له ، إذا كان موفقاً سعيداً ، الإنسان . فيعطى عطاءه كله لأنه يعيش ويحيا .

وأنا هنا لا أهون من رهبانية الآباء الرهبان فهم الأقربون مودة بل إنى أحترم طاقة الصبر فيهم ، وقدرة الزهد والخلوص . . .ولكنى أتحدث عن القاعدة لا الاستثناء .

كل حضارة لها رؤية من الرؤى فزهد المسيحية كان رداً على المادية الرومانية الممعنة فى الإسفاف ... رداً على أمريكا العصر القديم.. فكانت المسيحية رد الفعل الذى يمثل الطرف الآخر . لقد عانت من وعثاء الفكر الإغريقى كما يقول توينبي فهى تبغى الخلاص مؤثرة الزهد فى متع الدنيا جميعاً .

نشدت المسيحية عمارة الداخل . . .عمارة القلب .

جاء الإسلام .

كان أكبر أملا فدعا إلى عمارة الداخل والخارج .

إذن لاتخافى من الزواج ... ولاتخافى زوجه ، من الحمل والولادة وهل أسعد من منح الحياة لملك كريم . . . هل أسعد من امرأة موعودة بالأمومة . . .تعطى من دمها وتعطى من حبها . . وتعطى . . . حتى لكأن دبيب الحياة الجديدة فى الأحشاء إيذان بالعطاء إلى ما لا نهاية .

إن الولادة يصحبها الألم والتقلصات ولكنه الألم العذب أو الألم المنسى كما تقول جداتنا والأمهات . . . بسمة واحدة من المولود تغسل عمراً من الآلام لا ساعات معدودة .

لانصدق من تسهب فى وصف معاناتها فى الولادة فلو آن الأمر لا

يطاق كما تتظاهر أو تتفاخر ببطولتها لما حملت بعد هذا مرة ومرتين ومرات . . . إن بعض الناس يحبون المبالغة فى وصفهم أو فى تجربتهم .. هواية .

ألا تشتهين أن يكون لك بنت فى مثل شبابك بحلاه ، وعقلك بمواهبه أو مثل أختك فى دماثتها ووسامتها ونجاحها ؟ أو ولد مثل أخيك فى توهجه وطرائفه ؟

لقد تألمت ألم الولادة عندما خرج كل منكم إلى الدنيا ولكنى مستعدة لاحتمال أضعاف هذا الألم مقابل هنائى بكم . .

إنجبى الأطفال فإنى أشتاق إلى اليوم الذى أصبح فيه جدة ولها أحفاد أو شياطين صغار .

ولكن لا تستمرئى هذا التشجيع فإن وطنك جاد فى تحديد النسل فلا تحمليه من طرفك أكثر من ثلاثة وإن كنت واثقة بإذن الله أنهم سيكونون له أبر الأبناء .

أنت فى سن الشباب .. وكم يسعدنى أن تكونى محبة محبوبة ولـكن بعد صدق اختيار .. اختيار يساند فيه العقل ، القلب ؛ ويؤكد الاقتناع الكامل السليم ، دفق العاطفة ... اختيار كريم منك ومن الطرف الآخر فليس من الحب إذن ، الارتماء الأهوج أو التسلية الرعناء و (التجربة) التى يشيع القول بها الآن فى بعض البلاد ... إن أصحاب (التجربة) هؤلاء يغرقون حتى آذانهم فى الوحل والدنس .. ومن الغريب أنهم بعد تجربتهم المعهودة يألفون الوحل والدنس إلى حد قد يعادون معه الطهر والنور وقد يتظاهرون بالسخرية منهما تغطية لعالمهم المظلم .

إدخرى نفسك يا أعز الناس لمن يكرمها ويقدسها ... ومن القداسة ألا يمسها بسوء .. ألا يقربها إلا طاهرا مطهرا .... طاهر الذيل والنفس والهدف ...

إنك معبد وإنك صلاة ... فليحبك (الرجل) ولكن كما يحب المؤمن ، الله ... يؤمن به ومن إيمانه يخشاه ... ومن خشيته يهواه .

أنت تحبين النظافة .. وشاهدى عينى التى تراك دائما تنظفين جسمك وأشياءك وتتوضئين عند كل صلاة حتى لو كان وضوؤك السابق ساريا ... كل هذا جميل ... جميل أن تعتنى بجسمك هذه العناية كلها ... وأرى من العناية بهذا الجسم معرفته معرفة كاملة .. معرفة أعضائه ومعرفة حقوقه ... ومعرفة قيمته عندئذ ترتفعين على كل ما يشين .. مايهين .. ما يشوب «النظافة».

كم يسعدنى أن تحسى ليلة عرسك أنك تسيرين إلى زوجك ملكة تملك غاليا ... تملك جسما مصونا غاليا ، وقلبا بكرا ...

ما أحلى وأهنى الدر فى الأصداف .

كم يسعدنى أن تسيرى ليلة عرسك فى موكب من كرائمك ...

عينى تراك يا عروسى الجميلة من خلال غلالة الحياء الرقيقة كالبسمة ، اللطيفة كالنسمة ، معتزة عزيزة شامخة بما ستقدمين من كنوز الجسم والروح التى لم تستبح يوما لغاصب أو آثم .

نعمة كبيرة لا يعرفها إلا المطهرات ... اللائى لا يعرفن الندم أو الاعتراف لأنهن ، قبلا ، لم يعرفن الخطيئة .

لاتخافى أو تفزعى .. أنا لا أقصد أن تطلقى ساقيك للريح عندما ترين رجلا فالذى يعلمك فى المدرسة والجامعة رجل ، والذى يجلس إلى جانبك فى المدرج رجل . . زميل فى الدرس وطالما أثنيت على زملائك ... وطالما شجعتك أنا على أن تكونى طبيعية معهم دون أن تتكلفى الابتعاد ، أو تصطنعى حشمة مبالغاً فيها ...

قال رجل لعمر بن الخطاب مادحا صاحبه : (إنه لا يعرف الشر) فقال عمر فى ذكاء الفطرة وحكمة التجريب (ذلك أحرى بأن يقع فيه) ...

لاتخافى من الرجال ... لا تفزعى . فقط كونى قادرة على حماية نفسك بيقظتك وقدرتك على التمييز بين الخير والشر ... بين الحقيقة والزيوف ... بين النفاق والصدق ... بين الحب والشهوة .

وكم يحتاج هذا إلى ذكاء العقل والحس .

ثقى أن كل سيدة ، جميلة ، إذا عرفت كيف تلبس وكيف تجلس وكيف تتحدث وكيف تتزين وكيف تتصرف ومتى تتكلم ومتى تصمت ... إن الجمال الغالى (تركيبة) صعبة من هذه السمات جميعا .

قد يكون الوجه الجميل عوناً لصاحبته فى بداية الأمر ولكن الانبهار الذى يحدثه جمال الوجه يزول سريعا بتكرار النظر إليه ولكن البهر الذى

يكون لمواهب النفس أو القلب يعمق ويعمق ومن هنا نفهم القول (طول العشرة تحنو على الدمامة وتقسو على الجمال) ...

لى صديقة تعرفينها أنت جيداً ليس لها أدنى حظ من الجمال ولكن كم نشتهى زيارتها وحديثها أنا وأنتم على السواء ؟

أنا لا أنتقص من جمال الجميلات فالجمال نعمة بلا شك . ولكن إذا اكتفت صاحبته به بلا إضافة معنوية ، كان نقمة ووبالا . وهو فى حالتيه كالورد سريع الذبول ولا فضل لصاحبه فيه حين تحسب له الصفات المكتسبة والمزايا المحصلة ...

الحب ليس الفارس والحصان الأبيض .. الخ تهويمات القصص والأساطير التى يكتبها أصحابها لتزجية الوقت ، أو تسلية الفراغ عند الحالمين والحالمات ... الحب لا يرسم ولا يعلم .. الحب الصحيح توفيق من الله حين يريد لاثنين أن يسعدا .

إذا أردت أن تتسلى بقصص الحب فلك ذلك على ألا تصدقيه أو تدعيه يؤثر عليك ...

إقرئى ألف ليلة إذا أردت ، للفن . ولكنها لا تمثل الحياة .. قد يكون فيها الكثير من حياة عصرها ولكن عصرك لا .

إقرئى عن مجنون ليلى ، أو قيس ولبنى ، أو جميل بثينة ، أو كثير عزة ، أو العباس بن الأحنف وفوز ، أو ولاده وابن زيدون .... إقرئى هذا كله للشعر والفن والقصة ... ومع أن كل هذه القصص صحيحة ، وفيها لمسات إنسانية إلا أن عصرك له طبيعة أخرى ...

إقرئى (آلام فرتر) و (رفائيل) و (حياة لامرتين)

و (روميو وجوليت) و (كليوبطرة) بل أقرئى شعر الشابى وهو من أبناء القرن العشرين ومع هذا فعصرك قطع بعده أشواطا بعيدة .

فى سائر اللغات قصص لا تحصى عن الحب ومع هذا فالحب لا يصلح للاقتباس كفنون الأدب ، أو التقليد كالأزياء .

البسى كملكة إذا أعانتك قدرتك المادية ، ولكن لا تقلديها فى الحب فكم من ملكات وملوك سجل عليهم التاريخ ما يهول أذنك الصغيرة ... وبعض هؤلاء اشتهر بالحزم والعزم فى سياسة الناس .

وليست اللغات وحدها فالتاريخ زاخر بقصص الحب .. بل إن الحب غير مساره فى كثير من العصور والبلاد ...

لم ينج من الحب أحد حتى رجال الأديان .. من عف منهم كقس سلامه ، ومن أسف كراسبوتين ...

ومع هذا فالحب ، الحقيقى ، فى سائر ألوانه نعمة . وليس اعتباطا أن اسميكما حنان وفينان .. فالحنان عطاء ... وفينان السخاء المنقطع النظير فى كل شىء ... فالظل الفينان ، وارف .. والنعمة الفينان سابغة ، والشعر الفينان ، طويل ...

فينان هى الحنان .

والحنان أكرم صفات الإنسان لأنه جماع الصفات الطيبة فيه فالذى يحنو كما قلت لك يمنح ولا يسلب . ويعطف ولا يقسو ، ويلين ولا يجفو ، ويسمح ولا يشتط .. وحسب الإنسان أن تتكيف شخصيته على هذا النمط الرفيع لتلتقى القلوب على محبته ، وتجتمع العقول على إكباره .

إختيار الزوج

أنت تتلقين علومك وثقافتك . . هذه هي ثروتك الحقيقية مضافاً إليها رصيدك مما شاهدت في صحبتنا من معارض وفنون المسرح والسينما ، وما قرأت من ألوان الكتب ، وما شاهدت من بلاد أجنبية فاحرصي على أن يكون زوجك الذي تختارينه شخصاً مثقفاً متفتحاً يقدر الفن ، ويتذوق الجمال في الحياة : جمال الكلمة وجمال النغمة ، وجمال الطبيعة وجمال الأثر الفني وجمال الجمال حتى تضمني متعة الحديث والسمر والصحبة فإنه لا يطفىء القلب مثل تفاوت المستوى الفكري بين زوجين بحيث يكون أحدهما في واد ، والآخر في واد آخر . . . إنها الوحدة القاتلة وإن رآهما الناس ، وسقف البيت : اثنين .

لا يكفيني أن تعيشي . . . أريد لابنتي أن تحيا . . .

إن الزواج القائم على مزايا العقل والروح هو الذي يبقى ويطرح .

وعندما يتحول الزواج مع الشيخوخة إلى ألفه قوية وصداقة عميقة تكون مواهب الروح خير بديل عن متعة الجسم التي يكون الزمن قد فرغ من التهامها . . . ولكن الزمن نفسه لا يستطيع ممارسة هوايته المفتونة بحفر التجاعيد ، مع الروح الخضراء المتجددة النضرة .

انها كالأثر النفيس يزيده القدم قدراً . . .

ولكن ليس معنى هذا عبادة العقل وحده فهو أحياناً عند بعض الناس يتسيد على حساب جمود العاطفة أو نضوبها . . وهذا الطراز لا تسعد صحبته ... إن رحلة العمر تحتاج إلى القلب والعقل معاً ... إلى الجسم والروح معاً . . . إلى العمل والأمل معاً ...

مرة أخرى إلى القلب والعقل معاً . . .

لا تتسرعي في اختيار زوجك . ومن التسرع أن تبني موافقتك على ميزة

إستجمعى ذكاءك كله أيام الخطبة ثم غلفيه فى سلوفان أى فى لباقة .. وراقبى تصرفات خطيبك وخاصة تلك التى تصدر وحى ساعتها بلا تعمل أو « رسم » فإن التصرفات اليومية الصغيرة لها دلالة كبيرة على معدن الشخصية من كرم وبخل ونبل واتضاع ورجاحة عقل أو تفاهة تفكير . . .

قد يغرقك بالهدايا دون أن يكون كريما . . . فالكريم شجاع وسمح . . . إن الذى يسخو ، يعفو فلا يعد على الناس أنفاسهم ولا يأخذهم بضعفهم خاصة إذا حكمت عليهم ظروفهم بالتورط فى الخطأ . . .

والكريم يستحى من اللفظ العارى ، والعمل النابى ، والتصرف الصغير . . .

إنك مصرية أصيلة فابحثى فى خطيبك عن روح الفكاهة أو مايسمونه خفة الظل أى الوسامة النفسية وهذا بالطبع غير التهريج — فإن الذى لايهش للنكتة ولايفهمها إنسان جدب لاترف أزاهيره . . .

ليتنا نأخذ بمبدأ شهادة طبيب كالمتبع فى الدول الواعية حتى لا نظلم بعضنا بعضا . . . شهادة بصحة الجسم والعقل والبراءة من الأمراض الخطيرة أو الاستعداد الوراثى لها .

أنت تعيشين فى رغد نحمد الله عليه . وليس معنى هذا أن تشترطى الغنى العريض فليس ماترينه من فضل الله ، مالا هبط علينا من السماء مع رخات المطر ، أو ورثناه بلا تعب بل هو ثمرة كفاح موصول وعمل جاد . . . ومع هذا فاحرصى على أن يكون خطيبك ذا مال يضمن لكما حياة مريحة أو على الأقل لايكون مفلساً فإن هموم العيش والنزاع على المسائل المالية صخرة تتحطم عليها كثير من الزيجات .

هبى أنك عملت بكل هذا واخترت خطيبك أى زوج المستقبل فلا

أعجبتك فيه . . . زنيه كله واعرفى حجمه الحقيقى شكلا وموضوعاً فإن رجع لديك فقد وفقت .

ومن التسرع إقناع نفسك بالتجاوز عن عيب جسمى أو خلقى فيه فإن هذا العيب سيتضخم بعد الزواج حتى ليبدو فى عينيك أكبر من حقيقته ... ثم ينعكس هذا الشعور على تصرفاتك ومشاعرك فتهتز حياتك الزوجية ببطء أو بعنف ولكنها تهتز على أى حال .

لاتتزوجى لمجرد الزواج أى سد خانة بل تزوجى عن اقتناع ، ورغبة ، واختيار فإن افتقاد عنصر من هذه العناصر يسلم إلى الشقاء الذى يستعصى على العيادات النفسية .

إنك تعجبين بوالدك لأنه رجل كريم ولأنه على خلق وله مبادىء ولكن هذا كله أرجو ألا يدفعك دون أن تدرى بالزواج من رجل فى سن والديك استبقاء للحنان الغامر ، أو استمراء للتدليل . لخير من هذا التوافق فى التفكير والنظرة إلى الأشياء التى تسود بين أبناء الجيل الواحد.. واعلمى أن الحياة بين متفاوتى السن لاتسلم على القلق ، وعقد النقص ، وإغراء الشر ، وإغواء الشيطان .

ليحفظ الله لك والدك فانشدى أبا لأبنائك لالك . . أبا يكون الفرق بينه وبينهم يسمح بالصداقة وبالفهم الذى يسود بينك وبين والديك وهو سر تعلقك بهما . .

تزوجى رجلا يخلص لك وحدك أى لا تعشيه أضواء الشهرة ، أو تغره أو تغويه . . . هل رأيت مسرحية (مطرب العواطف) أتذكرين كيف كان البطل المغنى تهافت عليه النساء من مختلف الأعمار . . . اسألى نفسك هل تستطيعين احتمال مثل هذه الحياة ؟ هل تسلمين نفسك مختارة فريسة للغيرة والقلق و (الانشغال) ؟

أنت..ماأنت؟أنت فجر من السحر تجلى لقلبي المعمود

أنت أنشودة الأناشيد ، غناك إلـــه الغناء رب القصيـــد

أنت فوق الخيال والشعر والفن وفوق النهى وفوق الحدود

لاياعزيزتي أنت إنسانه ربيت وثقفت ولكنك لك هناتك ولك مزاج قد يبدو غريباً أحياناً فيما تتناولين وتدعين .. ولك سخطك ورضاك ككل الناس ولست فوق الخيال وفوق النهى وفوق الحدود كما يقول فتى تونس . . .

إن الصدق ثقة ووثاق .

تهرك مباهج الخطبة و توهجها فى العواطف و المسرات فتسلمين مبكراً ما يهوى خطيبك منك . . . إنه خطيب فقط لم يصبح زوجاً بعد . . . فاجعلى كل شىء بمقدار و ميقات فما الخطبة إلا اختبار معرض ، ككل امتحان ، للنجاح و الفشل حتى و لو كان الطالب نجيباً متفوقاً . . .

و إذا تجاوزنا الاعتبار الأخلاقى و الأدبى فهناك عامل نفسى فى الموضوع وهو «الشوق» فكلما احتفظت بنفسك ، كلما كان الشوق إليك قويا متقداً .. فتظلين العروس . . . عروس الخيال والواقع معاً . . . . أما تلك التى تستنفد أغراضها و تستهلك قبل الزفاف فإن الرغبة فيها تبطل أو تفتر على الأقل .

أنت لم تمارسى التمثيل فلا داعى لاحترافه أيام الخطبة فإن لم يقتنع بك كما أنت بلا رتوش فسوف لايقنع بك بعد إسدال الستار على المسرحية .

كونى طبيعية فى قولك وعملك ولا تترددى فى ذكر ما تحبين وما تكرهين فإنك ، إنسانة ، لك الحق فى هذا كله . . . وليس لأحد أن يطلب إليك أن تتجردى من بشريتك لتكونى مرسومة كالجيوكندا أو (امرأة) أبى القاسم الشابى أو شاعرنا محمود حسن إسماعيل فكلاهما جمع فى إهابها الفجر و الورد والعطر والأيك والجدول والخميلة والظلال والنور والجمال والعبقرية ثم راح أحدهما يقول :

أنت دير الهوى وشعرى صلاة ... لك طابت ضراعتى والتذلل

وراح الآخر يترنم :

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام ... كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء ... كالورد كابتسام الوليد
أنت .. ماأنت؟ أنت رسم جميل ... عبقرى من فن هذا الوجود

الزوجة المثالية

لقد بذلت لك الرأى الذى يعينك على اختيار شريك الحياة .. ولكنى كما أتمنى لك زوجاً مثاليا ، أتمنى أن تـــكون أحب الناس إلى ، زوجة مثالية .... وأما مثالية ...

تعالى أحدثك عن الزوجة المثالية كما يعرفها عصرنا الحديث ..

لقد تفتح عنك الكم الآن ، زهرة الربيع . وغدا يضوع منك الشذى فى بيت آخر ، بيت يحمل اسمك وذوقك وطابعك . وقبل أن تصيرى زوجة يا عروسى الجميلة ، تعالى أحدثك عن الزوجة التى أريدك أن تكونيها .

تعالى أحدثك عن الزوجة المثالية كما يعرفها عصرنا الحديث .

حقاً إن الزواج قديم جرت عليه سنة الحياة منذ الأزل ، ولكن الجديد فيه معناه ، لأنه يتغير بتغير العصور ، وباختلاف البيئات والثقافات .

فالزوجة اليوم ارتفع معناها عن المتعة والأنوثة والزينة حتى غدت تشغل مكان الصديق والسمير والشريك والرفيق .

الزوجة المثالية فى مفهوم العصر الذى نعيش فيه نبع حنان تروى عذوبته ظمأ القلوب والأرواح ... فإذا اشتدت الأيام ، كانت الساعد الذى يتكأ عليه ، والصدر الذى يغيب الوجه فيه . إن عطف الزوج يا ابنتى فى الأحداث خير بلسم يشفى الجراح .

وإذ تقبل الأيام ، تنهض الزوجة وتعمر وتنضر وتبنى وترفع وتبعث الحياة فى كل خامد ، وتشيع الأحياء فى زوجها ، فى بيتها ، فى نفسها ... إحياء ماديا ومعنويا ذلك الذى أعنيه .

وهى فى الإدبار والإقبال تعويض وتوجيه وخلق... والزوجة الطموح لا تنطفىء روحها مهما اشتدت الريح أو أغطش الليل .

إن الربان الماهر هو الذى يتغلب على الأنواء والعواصف وهوج الموج ... أعرف أن الغلبة هذه تكلف الربان كثيراً من المكابرة والمجالدة والصراع .. ولكن النصر ماجاء يوما بلاثمن ... ثمن غال .

بل لعل لذة الحياة فى هذا الكفاح ... فى هذا الكَبَدَ ... الذى يزيد صاحبه كل يوم جديدا فى ماله ونفسه وتفكيره وتجاربه ورصيده من معرفة الحياة والناس !

وثق يا صغيرتى أن العيش إذا بلغ حد الرخاوة والطراوة قتل صاحبه ، أعنى وأد طموحه ، تحفزه ، تحمسه ، نشاطه ... فيورثه بلادة الحس والخمول وقصور الآمال . وما أتعس الحياة بلا أمل ، بلا عمل ، بلا غاية ، بلا هدف نحلم به ، ثم نصحو لنسعى إليه ، ثم نفرح أن ندنو منه ، ثم ننتشى من الراحة إذ نظفر به .. ثم ... ثم نحلم بهدف جديد .

هذه هى الحياة يا ابنتى قوة دافعة .. روح متأججة ، نفس لاهبه .. رغبة جادة فى التجدد والنماء والاستعلاء .

إن الزاوج المثالى هو البيت السعيد الذى يشرق بالنظافة ، ويروع بالتنسيق ، ويضىء بالفن صوراً ولوحات وتماثيل ، وينفح بالعطر ، ويشرف بالمكتبة .

إن نظافة بيتك تعلن عن نظافتك ، وتنسيقه يومىء إلى ذوقك ، وضبط أموره يدل على شخصيتك .

إن باقة صغيرة من الزهر ، أو إصيصا هنا وهناك يفيض على عشك الجمال والعطر ويهدى نفس رائيه صفو السلام وهدوء الراحة .

إن لوحة للشروق ، أو الغروب ، أو النبع أو الصيد ، أو غير هذا من بدع الفن ترتفع ببيتك درجات إذ تقول فى صمت . . هنا إنسانية رفيعة تحس الفن وتقدره . . هنا نفس مصقولة شفها الفن وأضاءها نوره .

إن قدسية الفن يا إبنتى تجعل من الجدران الجامدة محراب صلاة .

إن مكتبة عامرة تحدث عنك : هنا حياة فى نسقها الأعلى .. هنا أشياء أخرى غير الطعام والشراب والنوم

بمثل هذا يا ابنتى تسمو المنازل وتطيب الحياة .

ومثل هذا يا إبنتى هو الذى يدفع بصفوة الشباب المصرى إلى الأجنبيات. ولست ألومهم وحدهم ، فإن الرجل المثقف ينشد صنوا لعقله وتفكيره ومشاعره ، ينشد رضى لنفسه وقلبه معاً . وإذا لم يتوفر له هذا فى المصرية تطلع إلى غيرها فى الأوطان الأخرى . ويا ويل مصر إذا تسربت كنوزها خارجها .

لماذا تنتشر المقاهى إنتشارا واسعاً فى مصر ؟ إن دلالتها خطيرة ياصغيرتى ، فإنها ما كانت لتنتشر ويتزاحم فيها الرجال هذا التزاحم لو أن فى بيوتهم ما يجذبهم إليها ، ويربطهم بها ، ويحببهم فيها . فإن المرء عادة لا يهرب من النعيم ولا يركل النعمة .

إذا رأت عينك رجلا يرتاد المقهى فى إصرار ، فاعلمى أن الرابطة العائلية فى بيته مفقودة . اعلمى أن بيته أشبه بفندق يجمعه به الأكل والنوم . وقد كان هذا حال بيوتنا فى الماضى يا ابنتى وبعض بيوتنا فى

الحاضر ، حيث تكون سيدة البيت تافهة الحديث ، متشابهة الأيام ، محدودة الآفاق ، قليلة الوسائل .

ومن أخص لوازم الزوجة يا إبنتى أن تكون لها قدرات شتى . لابد أن تجيد الحياكة والطهى والتنظيف حتى لا تقع فى أسر غيرها ممن يعرف ما تجهله ويعلم أنها تجهله .

وإذا كان من واجبات سيدة البيت الإشراف الكامل العارف الواعى على كل شىء فيه ، فكيف يتسنى هذا الإشراف لجاهلة بشئونه ؟ لا شك أن الزمام يفلت من يدها .

جددى بيتك دائما تتجدد معه نفسك ونفس زوجك وأولادك .

اقتصدى من يومك لغدك . وهنا أهمس فى أذنك إن الاقتصاد غير التقتير ، كما أن الإنفاق غير التبذير ، استقت قلبك .

قربى أذنك من فمى مرة أخرى فإنى أريد أن أوصيك بالضعف لزوجك . سيطرى على بيتك سيطرة كاملة ولكن ... عند زوجك ففى . إن الضعف الحبيب لا الذليل يمكّن لك من قلبه لأنه يشعره بسيادته ، لأنه يؤكد رجولته . هو شعور أثير لديه يحرص عليه ، لأنه مدار شخصيته وجوهرها فى نظره ونظر الناس .

إن الرجل يحب يا صغيرتى أن يكون فى بيته السيد المطاع ، فلا تحرميه هذه المتعة بل عززيها بلطف مدخلك ورقة حسك .

أشعريه دائما أنه رجلك وحاميك تتزن شخصيته ، وتبرأ نفسه من مركبات النقص وما تجره على صاحبها من التصرفات فى داخل بيته وخارجه .

ثم ما يزال لك عندى وصية أخرى . إهتمى بعمله . إهتمى بمتاعبه ... إهتمى بمطامحه . ساعديه بتأييدك وحنانك وفهمك ، على تحقيقها . حافظى على سره محافظتك على عرضه وماله . غيبيه فى صدرك إلى الأبد وأعلمى أن للثرثرة مع الصديقات موضوعات أخرى . إياك أن تطلعى عليه أحداً حتى أملك التى تسكب عليك الآن نفسها وعقلها وتجاربها .

ويوم يوقن أنك جزء منه تدورين فى فلكه ، وتسيرين إلى جانبه ، وتقفين بجواره ، وتعتقدين أن خيره خيرك . . يوم يوقن بهذا كله يوم تتأكد منزلتك فى نفسه ويتسع مكانك من قبله ، فيحرص عليك ويغالى بك فلا يبغى عنك حولا .

هذا هو البيت السعيد يا ابنتى .. الذى تسوده روح الفهم والتقدير والمشاركة الوجدانية والتجاوب العقلى والروحى والتعاون الصادق الصامت المخلص الذى ينكر كل فيه نفسه ، لأن سعادته الكبرى تتمثل فى العش الهانىء الناعم الناعم بالصفو والهدوء والانسجام والسلام .

إن الزوجية عند المرأة المثالية يا ابنتى امتداد للأمومة فهى تحل محلها أو تعوضها أو تكملها .

إنها كالأمومة إنسانية وارفه . أنها كالأمومة إنتاج لا استهلاك . إنها كالأمومة واحة يرتاح إلى بردها الحران واللاغب ، ويفىء إلى ظلها المكدودون ومن دميت أقدامهم من وعثاء الطريق .

إن الزوجية المثالية فن يا ابنتى .. فواجباتها كماحدثتك كثيرة ولكن لباقة المرأة المثالية تعلن عن نفسها فى مساوقتها بين هذه الواجبات حتى لا يطغى أحدها على الآخر ، فلا يستنفد الزوجة ، البيت ، فلا تشرق ، أو

يستنفدها العمل فلا تنشط ، أو تستغرقها الزينة فلا تؤدى ، أو يجانبها السداد فلا تغنى .

لابد لها أن تمثل فى البيت فى وقت واحد : المدبرة ، والسيدة ، والمرأة .. ما أكثر مهامها . . وما أشقها .. وما أسعدها .. لها الله . متى يالهى تصبح فتاتى حفلا من المباهج . .. أى زوجة مثالية .

الأم المثالية

غدا يا صغيرتى ستصيرين بمشيئة الله أماً كما جرت سنة الحياة فتعالى قبل أن تعتلى العرش العظيم أحدثك عن مهامه الخطيرة .

إن الأمومة يا ابنتى ليست مجرد حمل ووضع ورضاع ، لأن هذا تتساوى فيه الأنثى من كل نوع . وهى عملية دنيا فائدتها للنوع أكثر منها للفرد ، ولكن الأمومة فى جوهرها يا ابنتى بناء وإنشاء وغرس ، فإذ سمق البناء ، وأعجب الإنشاء ، وازدهر الغراس ، انتصرت الأمومة فى المرأة واحتفلت بيوم عيدها .

الأمومة يا ابنتى طبيعة ووظيفة وفن . فهى فى أبسط مظاهرها وفجر ظهورها ، طبيعة ، هيأ الله لها كيان المرأة . ثم تتدرج فتصير وظيفة مهمتها التغذية والتكوين . فإذا سمت وارتقت أصبحت فنـــا لا يحذقه إلا الموهوبات فيه .

وفن الأمومة كفن الصياغة فى الأدب ، له أسرار ولفتات ولمحات هنا وهناك .. إن الأمومة يا صغيرتى أسلوب أيضاً يتفاوت بين الأمهات فعند أم يعذب ويروق ، وعند أم يمتع ويشوق ، وعند أم يرق ويصفو ، وعند أم يحلو ويسمو ، وعند أم يجزل ويخصب .. وعند أم .. يسف ويختل أو يضعف ويعتل فيطنب ولا إشباع ، ويتكثر ولا إمتاع ، ويتهلهل وقد شاعت الركاكة فيه .

وفن الأمومة يا ابنتى كفن التلوين عند الرسام . وهو يتفاوت كالألوان بين الأمهات أيضاً . فلون صارخ يصخب ، ولون فاقع ينفر ، ولون هادىء يريح ، ولون حالم يوحى ، ولون باسم يسر ، ولون ناعس يحلق

بالخيال ، ولون هامس يلهم الشعر .. لون فيه أسرار ، ولون له أطياف ، ولون له أضواء وظلال ، ولون يبعث الانسجام ، ولون يشيع السلام .. وهكذا الأمهات .. ألوان .. ألوان يا ابنتى .

فن الأمومة يا حبيبتى كفن الخلق عند المثال فواحد . يشكل أجساماً بلا روح ، وآخر يصنع تمثالا ينقصه التعبير ، وثالث يشكل أصناماً ينكرها الفن الصحيح .. وفنان يحرك جامد الصخر ، وينطق صامت الحجر ، فإذا الجسم لا تنقصه أمارة من أمارات الحياة . فالعيون تسر إليك ، والشفاه توسوس لك ، والوجه يتودد إليك ، والصدر يوهمك أنه تفتح لك لتودعه أسرارك ، والتمثال بروحه الخفية يفضى إليك بسر صانعه ويحدثك حديثه فإذا بنفسه أمامك كتاب مفتوح ، وإذا به أدنى إليك من صديق .

وفن الأمومة يا ابنتى موسيقى ذات ألحان .. فلحن يثز ، ولحن يقز ، ولحن يمل بالتكرار ولا معنى ، ولحن نشاز بلا هدف .

ثم لحن يحمس ، ولحن يحفز ، ولحن يصور ، ولحن يلهم ، ولحن يخلد ، ولحن يسرى إليك ، ولحن يحلق بك ، ولحن يبكيك ، ولحن يهنيك ، ولحن يستغرق ك ساعتك ، ولحن تعيش فيه أياماً وأياما ، ولحن يهذب ، ولحن يرقق ، ولحن يعلم الجمال ، ولحن يفسح الخيال .. وألحان وألحان .

والأمومة يا ابنتى **صناعة** أيضاً فهى التى تصنع الرجال على إرادتها كما تهوى وتختار .. والتاريخ إذا أقبلت عليه يحدثك حديثاً لا ينفد عمن صنعتهم أمهاتهم قبل أن يصنعوه . . وكم من عظيم صنعه أبواه ولو لم يكونا من النابهين ..

والأمومة يا ابنتى إنتاج لا استهلاك. حقا إنها مزيج من الأنانية والإيثار ،

الأنانية من غريزة التملك ، والإيثار من غلبة العاطفة وهو اللون الأغلب . فهى كثيراً ما تعطى وليست كأولئك الذين يأخذون ولا يعطون . وأروع ما يتجلى إيثارها فى رغبتها الحارة فى ارتفاع أولادها عليها . ويتضاءل حب الإنسان فيها لنفسه ، فتتمنى مخلصة أن يطول فرعها على الأصل الذى هو .. هى نفسها ...

إنها الأمومة كشجر الليمون الذى يحمل فى آن واحد الورق والزهر والثمر .

وهى بهذا منبع للثروة يزيد على الأيام .

وقف الناقد الإنجليزى « برادلى » عند (الجميل والسامى) فوصف شلالات نياجرا والهملايا وغيرهما من روائع الخلق . ثم رأى كلبا يهجم على عش طائر فإذا بالأم الضعيفة تهجم على الكلب بشجاعة تسترخص الفداء ، دفاعاً عن صغيرها .

هنا كتب برادلى : هذا هو **السامى** . لقد رأيته .

الأمومة يا ابنتى حنان غامر لا يتخلى ولا ينقص على الكبر ، بل لعله يعمق ويزيد من مغالاة .. وعلى قدر هذا الحنان بنوره وإلهامه وإيحائه تكون قدسية الأم . فاغدقى الحنان يا ابنتى الذى جعلناه لك اسما . . أغدقيه أما ، على بنيك ما امتدت بك وبهم الحياة . فإن الأم إذا قست أو ضنت زلزلت القيم فى نفوس أبنائها ، إذ يرون الشر يأتى من حيث قدر للخير أن ينبع ويتحدر ويفيض .. وإذا اهتزت القيم تزلزل معها عرشها فلا تعود أماً بالمعنى الأسمى . ولا يغنى حينئذ عنها شيئاً ما يتبقى لها من صفات الأمومة ، إذ الولادة والرضاع كما حدثتك صفة مشتركة بين الإناث من كل نوع .

إحفظى عنى يا ابنتى جيداً هذا الكلام وكونى منارة هادية لبنيك ، يهفو الغائب إلى مرفئها الرحيم ويجن العائد ، من فرح ، بنورها الحبيب ، ويسترشد الضال منها بالشعاع ، ويلوذ الخائف فى الظلام بها إذا احلولك الليل .

ليكن فى تقديرك دائماً يابنتى أن الأمومة الجليلة هالة للبنوة تضىء حتى بعد غياب مصدرها . فالبنت خاصة ، تنسب إلى أمها . وإذا كانت الأمومة لاتحمل معناها لحقت لعنتها أيضاً البنوة وأزرت بها .

قد لايكون وراء العظيم أمومة خالقة وأبوة صالحة . فكم يتامى استعاضوا بالخلود عما حرموه ، وكم مضيعين رفعوا المشاعل لذوى الآباء.. قد لايكون وراء العظيم أمومة خالقة وأبوة صالحة — حقا هذا — ولكن المجرم حتما وليد أبوة فاشلة أو أمومة آثمة .

أعرفت ياصغيرتى الأثر العميق الذى للأم فى حياة البنين ؟ إنك وافرحتى تقرئين الآن فارفعى فى يدك كتاب أديبنا العظيم إبراهيم عبد القادر المازنى . . إفتحى الصفحة ١٠٢ من كتاب (قبض الريح) وإقرئى لأسمع وصف الكاتب الذكى للأمومة ، فإنه من أروع ماقرأت ، وبعض واجبى أن أهدى إلى عقلك هذا الشعاع .

بوركت لى بنتاً ، وبوركت لوطنك أماً ، وبورك لك فيمن تنجبين.

والآن أقص عليك قصتين أو فيلمين شاهدتهما ولا أنساهما بما جسما من معانى الأمومة وأثرها .

لقد شاهدت فى حياتى بالطبع أفلاماً كثيرة ولكنى فى حديثى عن الأم المثالية أتذكر هذين وكأنهما حلقة متصلة من حديثنا .

. . (إلى المجد) . . (إلى العلا) . . إنه يا ابنتى إسم (فيلم) واسم طفل وشعار أم . . كم أتمنى أن ترى عيناك ويتأمل عقلك ويتعمق وجدانك هذا (الفيلم) . . إنه قصة إمرأة فاضلة ترى الناس أحد اثنين : قمحاً أو جوهراً . . هكذا كانت تقول دائماً منذ بدأ الفيلم . وهى تعنى أن الناس ينقسمون إلى يدويين . . . عمال . . . يقوتون الحياة ويصنعون ضرورياتها ، ومفكرين وفنانين وخالقين ينضرون الحياة ، ويرسمون مثلها ، ويوشون أحلامها ، ويخلقون قيمها . .

آمنت السيدة بهذا فلما أنجبت طفلا أطلقت عليه So Big أى كبير كبير : كان إذا رفع يديه فى عبثه إلى أعلى وهو فى اللفائف بعد ، تتفاءل وتتمتم إنك تريد أن تلمس النجوم . . أن تطاولها . . وستفعل ! . . وحدت هذه الروح الطفل فى أطوار حياته . .

وحدث أن اضطرت الأم وطفلها إلى الكفاح . . إلى مصارعة الحياة . . إلى مجالدة الأيام . . إلى حرب الزمان . . فتماسكت وقارعت الخطوب بعزم حديد وصبر شديد وجلد عات حتى انتصرت على الأيام والأحداث وانصهرت نفسها الذهب فى بوتقة الزمن ، وخرجت منها نقية وضيئة كالمعدن النفيس . .

وفى المعركة الدائرة بين السيدة النموذج وبين الأيام ، تعلم الطفل الكثير وكابد ولمس كيف تنتصر النفوس الكبيرة وكيف تخلق . . ألم تخلق أمه باستماتتها فى الكفاح منه رجلا ؟ ألم ترق به إلى « الجامعة » وتضع فى يده شارتها « دبلوم الهندسة » ؟

ألم تشربه هدى الفن وتطبعه على حبه ؟ . الفن الأخلاق . . الفن الجمال . . الفن هبة السماء . . الفن عطر الحياة . . الفن سنا الدنيا وجوهرها . . هكذا كانت تلقنه .

واعترضت حياة المهندس الشاب ، زمنا ، فتاة من عباد المال كادت تهوى بقيمه ومعنوياته .

ولكن الفن فى شخص رسامة طوح بها ! وعرف الفتى فى النهاية أن الفن هو الأبقى . . هو الأسمى . . هو الخلود . .

* * *

مارأيك يابنتى فى هذه الرواية ؟ كم تعجبنى الأمومة الخالقة . . كم تأسرنى الأمومة المبدعة . . إنها من الروايات التى يعيشها رائيها زمناً بعد انتهاء العرض . .

إن كل مايتصل بالأمومة والبنوة يذكرنى بك وكل مايتصل بالأمومة والبنوة من واجبى أن أسجله لك .

إنى أتمنى على الله أن يكون لك فن . . أن يهبك تلك القوة السحرية الخالقة . . أن يمدك بروح منه . إن الفن من الله يابنتى . . هذا إيمانى .

هبها الفن يالإلهى تنضر بيديها الأشياء ، وتوشى بروحها الحياة وتنغمها .. هبها الفن يا إلهى لتتألق ابنتى وتسمو ..

هبها الفن يالإلهى يجد كنزها بذخائره ..

هبها الفن يا إلهى يجز الخير على يديها أنهاراً . .

إنى أضرع إليك ياربى . . . وإذ ترقى ضراعة الأم إليك ، تفتح سماؤك أوسع أبوابها . . .

هذا هو الفيلم الأول أما الثانى فقد كان بدوره معرضاً للأمومة . استهل بمنظر الأمهات فى مستشفى للولادة وقد دخلت عربة الأطفال الكبيرة وعليها

موالیدهن . وبدأت الممرضة تحمل من العربة إلى كل أم وليدها . . . ولا أريد أن أصف لك فرحة الوالدات بالكنوز المجسدة تضعها الممرضة بين أيديهن . . فمثل هذه العاطفة أكبر من الوصف ، وهو بعد هذا يفسدها ولكني سأصف لك إحداهن بطلة (الفيلم) التي تعلقت عيناها بالممرضة في كل خطوة تخطوها وحركة تأتيها . . كان وجهها يشرق بالأمل كلما إقتربت الممرضة من العربة . . فإذا حملت طفلا من العربة تشبثت عيناها بها وانتظرت أن تحمله إليها كما حملت إلى الأمهات أبناءهن . ولكن الممرضة كانت في كل مرة تدنو منها بالصغير بين يديها ثم تسلمه إلى أمه في السرير المجاور لها عن يمين أو شمال .

وقلق كيانها كله في سريرها وكثر تلفتها . وزاغ بصرها وهي ترى آخر أطفال العربة يحمل إلى .. أم أخرى أيضاً . . ونادت الممرضة في التياع حبيس وسألتها عن طفلها فأنبأتها أن الجواب عند الطبيب الذي سوف يخاطبها في الأمر بعد قليل . . وأحست المسكينة الكارثة تزحف إليها وإن جاهدت ألا تصدق إحساسها . من أمل . . وسرعان ما دخل الطبيب وأنهى إليها كالمعتذر ، ما كانت تخشاه ..

حسبي أن أقول لك أنها أنتحبت انتحاباً مراً ولا أزيد . . فإني أريد أن أجنبك الألم ما استطعت . .

وخرجت الثكلى من المستشفى لتبحث عن عمل لأن زوجها والد الطفل الذاهب كان ضحية تعسة من ضحايا الحرب . . وكان القدر قد فرغ من تسجيل مهمتها في الحياة فصارت تنتقل من بيت إلى آخر لتربي الأطفال . . أطفال الناس وتفرغ حنان صدرها كله فيهم . . وكانت يا ابنتي مخلصة في مهمتها إخلاصاً يدهشك لو رأيته . . كانت تحنو على الطفل منهم حنو أم . . ألم تكن أماً لم يتسرب من مذخور قلبها غير قليل في أيام قلايلة . . وبقي الكثير حيث هو . . . بل لعل الحرمان زادها إزهافاً ووقدة ورقة . . كانت تغدق

من نفسها وراحتها على الملائكة الصغار الذين سعدوا بصحبتها وقيامهـا عليهم . . أو تصدقين يا ابنتى أنها ضحت بسعادتها الزوجية وما تفيئه من نعيم العيش ، وهبة البنوة ، وعز الأمومة فى سبيل أحدهم ، وهجرت الزوج الواعد إلى غير رجعة لتعود إلى الطفل الربيب ؟

وعنت بآخر سبع سنوات متعاقبات فى غيبة والديه انقطع أثناءهـا ما يرسلانه إليه . فلم تتخل عن الطفل بل عملت وكافحت لتعول نفسهـا وتعوله . . ولما عاد والد الطفل ، أراد انتزاعه منها فلم تملك أمام هـذا الجحود المنكر ، والنكران الجاحد إلا أن تفر به . . تفر بسبع سنوات من عمرها . . ولكنها اعتقلت وحوكمت وسلم الطفل إلى والديه . . ولكـن محاكمتها ألصقت الجريمة عن حق بأصحاب الحق الشرعيين وارتفعت بهـا درجات . . لقد تأثر رجل البوليس القوى تأثراً عميقاً حين نشجت أمامـه قائلة على مرأى ومسمع من أم الطفل :

« ماذا تعرف هى عنه ؟ إن الولادة ليست كل شىء ، وهى وحدهـا لاتجعل من الوالده أماً إن أعوزها الحنان الدافق الموصول . . إن الحنان وحده هو الذى يوجب لمانحه الحب والتقديس . . . لمانحه أياً كان ولا دخل للولادة فى هبة القلب هذه كما لا دخل لها فى الجزاء . . . أنا التى عشت معه حياته لحظة لحظة . . . ماذا بذلت هى من أجله عندما مرض بالسعال الديكى . . . ماذا صنعت عندما مرض بالدفتريا ؟ هل جأرت مرة بهذا الدعاء ؟ يارب هاك حياتى فخذها واحفظ عليه هو الحياة ! ! » .

صدقينى يا ابنتى أنى انتفضت من كلمتها هذه . . . اغرورق قلبى رقة ، واغرورق دمعى شفقة . . . واختلجت كلى اختلاجة لاأصفها لك لأنى لاأدرى السبيل إلى وصفها . . ولأنك سوف تدركينها على حقيقتها إن شاء الله عندما تصيرين أما . .

لقد طوح الزمان بالمرأة النبيلة مطارح كثيرة . . ولكن المطاف انتهى بها إلى ربيب لها طبيب راحت ترتجى طبه وهى لا تعرفه ، ولكنه هو عرف فيها مربيته العطوف . ودعاها إلى بيته حيث أعد لها أعز مفاجأة . . ! كادت السيدة تطأ أكناف بيته حتى التف بها أولئك الذين ربتهم جميعاً ! شباباً كضحى النهار فيهم الألق والدفء وقد صاروا أزواجاً وأمهات وآباء ! ! ولمعت العينان الذابلتان . . . واهتز الجسم المصوح ، وهش الخريف للربيع . .

وأغمضت عينيها لحظة فإذا بها تراهم فى شبه حلم أطفالا تعالج عبثهم بالحيلة ، وتجيب على أسئلتهم بالقصة . . . وإذا بطفلى المضيف يوقظانها من حلم جميل لتفتح عينها على جمال آخر على طفولة جديدة هى بعض ثمرتها أيضاً . .

ومرة أخرى تصحو الأمومة الغافية فيها بحنوها ورقتها وفدائها لتتعهد أطفال . . الآخرين .

* * *

لقد عشت يا ابنتى فى هذا الفيلم أياماً بعد مشاهدته وحوادثه لا تنفك تمر أمامى متسلسلة ومتقطعة . . ولكن الحادث الذى كان يشغلنى أكثر من غيره . . قصة السيدة النبيلة مع طفلة لأم كانت تشتغل بالتمثيل . وهى مهنة كالتيار تجرف صاحبها وتدور به فلا يدرى مما حوله شيئاً . . وهكذا كانت الأم الممثلة ليس بينها وبين ابنتها إلا تحيات خاصة يتبادلانها فى صباح أو مساء . . وقد لا يلتقيان أياماً أو أسبوعاً كاملا . .

وحين تفقد البنت عطف أمها تلمس عطف مربيتها يحيطها ويرضيها فتكن للسيدة إعزاز الأم وما كان أشد دهشتها حين أتتها يوماً ومعها صديقة لها وقدمتها إلى صديقتها باعتبارها أمها ! .

لقد فرحت السيدة التى تنطوى على غريزة الأمومة بوفاء البنت ،

وجزعت السيدة النبيلة أيضاً لانصراف البنت عن أمها الحقيقية وإسقاطها لها من حسابها .. وتسرع بكل مافيها من كرم النفس إلى الأم الممثلة وتعلن إليها رغبتها فى اعتزال العمل عندها . .وتدهش الأخرى وتستبقيها باسم حب أطفالها لها . ولكن السيدة المربية تخبر الأم أنها بسبب هذا الحب ترغب فى الفصل عنهم . وتقص عليها قصة ابنتها وتنصحها بالإلتفات إلى أولادها حتى يحسوا وجودها ويقوموه !!

وترتد الممثلة إلى رشدها كمن يفيق من حلم مزعج وتقدم بدورها استقالتها من التمثيل .

إن الأمومة لايغنى غناءها أحد .. و البنوة لايغنى عنها شىء مهما بلغ .

من حديث البنوة

أرأيت يا قارئى الصديق كيف أن عاطفة البنوة أعمق العواطف الإنسانية؟ قد يبر الأبناء الآباء ، وقد يتعاطف الأخوة ، وقد يتحاب الأزواج . ولكن حب الوالد لبنيه فريد فى صفائه ونقائه وعمقه . . إنه نهاية الكمال لأنه منزه عن الهوى ، بعيد عن الغرض ، غير منتظر جزاء .. هذه العاطفة القوية قوة الحق ، الصافية صفاء الخير ، الخالدة خلود الزمن ، هى سر كبير من أسرار الحياة تحفز فيها إلى العمل ، وتدفع إلى الكفاح وتغرى بالفضيلة فى صور شتى ..

حبس العادل عمر بن الخطاب ، الشاعر الحطيئة لبسط لسانه فى الناس ولم يقبل فيه شفاعة فما إن استعطفه ببيتيه :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألفيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر

حتى اهتز الأمير الوالد ودمعت عيناه وأطلق أسيره للصبية بـــراً بهم ورحمة ..

والبنوة تغرى بالفضيلة وخاصة بنوة البنات . فوالد البنات يبغض الشر ، ويعاف المنكر ، ويتحرج من السوء قولا وعملا ، وهو يرعى الله ليرعاه فى بناته. وآباء البنات أرهف شعوراً من سواهم وأحرص على سلامة المجتمع من الخوف الذى يلازمهم على أغراضهم وهى غوال .

هذه البنوة التى يوغل أثرها فى الحياة إلى هذا المدى لها فى الأدب أثر مماثل . وهل الأدب إلا تصوير للحياة تبدو فى صقاله صورتها كاملة بما فيها من محاسن وعيوب ؟

ألهمت البنوة الأدب آيات رائعات سجلها الشعر آنا والنثر حينا . فمن وحى البنوة فى النثر رسائل ، ومن وحيها فى الشعر غناء ومناجاة . . ومن منا لا يطرب قلبه وهو يردد مع شاعرنا رامى ذلك النشيد العذب :

يابنى ، ما أحيـــلى يابنى ... أنت ظل مده الله على
نعمة العمر وتذكار الصبـــا ... والأمانى التى عزت لدى
لست أنساك جنينا خافياً ... فى ضمير الغيب أدعوك إلى
أتمنـــاك لعينى قـــرة ... حين ألقاك وليدا فى يدى
أرقب اليوم الذى تبسم لى ... وترى آى الرضا فى مقلتى
فأناجيك بألحان الهوى ... سابقات خاطرى فى شفتى
كلمات هى لا معنى لها ... غير أن تسمع منى أى شى
فتراعينى ولا تقوى على ... غض أجفانك عنى يا بنى

من منا لا يخفق قلبه من أجل شوقى وهو يخاطب فقيد الطب الدكتور على إبراهيم :

لك عند ابنى أو : عندى يد ... لست آلوها ادكارا وصيانا
دفع الله (حسينا) فى يد ... كيد الألطاف رفقا واحتضانا
لو تناولت الذى قد لمست ... منه ما زدت حذاراً و حنانا
جرحه كان بقلبى ، يا أبا ... لا أنبيه بجرحى كيف كانا
لطف الله فعوفينا معا ... وارتهنا لك بالشكر لسانا

ومن وحى البنوة فى النثر رسائل منها ما ضمها كتاب (من والد إلى ولده) للمرحوم الأستاذ حافظ عوض . . ومنها ما تضمنه كتاب الأستاذ أحمد أمين (إلى ولدى) . ومن رسائل الأول قوله : (لقد خبرت

العواطف على جميع درجاتها وأصنافها فلم أجد عاطفة أقوى تملكا للنفس ، وتمسكا بالحس من الحب الذى شعرت به نحوك منذ وجدت إلى اليوم) .

هذا هو شعور الآباء فما بالك بالأمهات . والأمومة كما قال الأستاذ المازنى عن حق ، أقوى من الأبوة (لأن الشعور الأبوى مرجعه إلى غريزة حفظ النوع كالحب وأساسه فى الرجل والمرأة واحد) . والعاطفة موجودة مردها عند الرجل والمرأة من حيث التكوين وما أعدتهما الطبيعة له ، ن حيث طبيعة الحياة يجعل هذه العاطفة أقوى فى المرأة وأنضج منها فى الرجل ، ثم تجئ الصور الذهنية التى تحصل لكل منهما فتزيد هذه العاطفة وتضرمها . وهذه الصور عند المرأة حشد حاشد وبحر زاخر لا آخر له ولا نهاية ، فهى لا تسعها إلا أن تذكر ما عانت فى شهور الحمل وما جربت فى أطواره وأحست من حركات الجنين فى جوفها ، ثم ما كابدت من عذاب الوضع وكم ألف ألف صورة تحصل فى ذهنها بعد ذلك ، منذ كان طفلها وليدا إلى أن يشب عن الطوق ويدخل مداخل الرجال والنساء . وكل حركة ومصة من ثديها وابتسامة ونظرة وتعبيسه وعولة وصوت ونهضة وعثرة وخطرة . كل ذلك منقوش على صفحة قلبها مرتسم على لوح صدرها ، مذخور فى رأسها . وجوها حافل بهذا الطفل ، وحياتها كلها دائرة عليه غير منفصلة عنه ، وماضيها كان تمهيداً له وحاضرها مستغرق فيه ، ومستقبلها آمال منوطة به . وأخلق بها أن يعيننا على تصور وعة الأمومة وعمقها وسعتها وانطواء كل إحساس فيها ، وتسرب كل شعور إليها ومنها . ولما كان نصيب الرجل من هذه الصور التى تحصل فى نفس المرأة أقل وأضأل فلا عجب أن يكون غلواء العاطفة الأبوية أتفه جداً مما يغذى عاطفة الأمومة) .

وليس أدل على روعة الأمومة من هذين البيتين اللذين أثرا عن إعرابية كانت تناجى بهما وليدها . ليسا من رصين الشعر أو منضد القصيد ولكنهما عنادى صورة نابضة للأمومة المتفتحة . كانت تلك الإعرابية ترقص وليدها وتقول :

يا حبذا ريح الولد ريح الخزامى فى البلد
أهكذا كل ولد أم لم يلد مثلى أحد

هذه ألفاظ بسيطة ساذجة ولكنها سذاجة الفطرة الخالدة ، وبساطة النفس الإنسانية حين تنطلق على سجيتها . . إنى أسمع فى تساؤل هذه الإعرابية (أهكذا كل ولد) خفقات قلب الأم . . أسمع لحناً خالداً.

* * *

وإذا كانت البنوة فى الوجدان بحيث توحى هذه الروائع فإنها عند الحرمان أقوى ، وجنون القلب بها أعظم . . ومن وحى البنوة عند الثكل هذه الدموع ، ولعلها أصدق ما فى الأدب من آيات لأن قائليها نفثوها وقلوبهم تحترق . ومن بحر الدموع هذه الدفقة التى رثى بها ابن الرومى ابنه محمداً :

أريحانة الأنف والعينين والحشا
ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به
وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدى
أعينى جودا لى فقد جدت للثرى
بأنفس مما تسألان من الرفد

كأنى ما استمتعت منك بضمة
ولا شمة فى ملعب لك أو مهد
ألام لما أبدى عليك من الأسى
وإنى لأخفى منك أضعاف ما أبدى

وكتب الأستاذ الزيات فى ذكرى وليده :

(واهف نفسى عليه يوم تسلل إليه الحمام الراصد فى وعكة قال الطبيب إنها « البرد » ثم أعلن بعد ثلاثة أيام أنها « الدفتريا » . لقد عبث الداء الوبيل بجسمه النضر كما تعبث الريح السموم بالزهرة الغضة . ولكن ذكاءه وجماله ولطفه ما برحت قوية ناصعة تصارع العدم بحيوية الطفولة ، وتحاج القدر فى حكمة الحياة والموت !

واهف نفسى عليه ساعة أخذته غصة الموت ، وأدركته شهقة الروح ، فصاح بملء فمه الجميل (بابا .. بابا) كأنما ظن أباه يدفع عنه مالا يدفع عن نفسه) !

وقالت أم خالد النميرية ترثى ولدها وكان قد توفى فى بعض الغزوات ودفن فى الغربة :

إذا ما أتتنا الريح من نحو أرضه
أتتنـــا برياه فطـــاب هبوبها
أتتنا بمسك خالط المسك عنبر
وريح خزامى باكرتها جنوبها
أحن لذكراه إذا ما ذكرته
وتنهل عبرات تفيض غروبها
حنين أسير نازح شد قيده
وإعوال نفس غاب عنها حبيبها

هذه ليست شاعرة ولكنها أم تتلظى .. وقانا الله تجربتها .

أكثير بعد هذا أن يقول الرسول (الجنة تحت أقدام الأمهات) ؟ وأن يوصى التنزيل الحكيم البنين بالآباء فى إكبار يدل عليه قوله : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا.. إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب إرحمهما كما ربيانى صغيرا).. ؟

وبعد :

فليعتبر الأمهات والآباء هذا الكتاب حديثاً خاصاً لأبنائهم وبناتهم أيضاً فإنهم جميعاً عندى (حنان) و (فينان) و (أحمد فؤاد) كنوزى الثلاثة ..

والآن ننتقل إلى مكتبة هذا الكتاب .

قرأت لك

لقد رسمت لك يا ابنتى صورة الزوجة المثالية وصورة الأم المثالية . والآن جاء دور التطبيق ٥

عندما تصيرين زوجة ، وفرى لبيتك مكتبة — لا يهم حجمها — ثقافية يتصدرها كتاب الله وعيون الدراسات التى دارت حوله ولو بالقدر الذى يبصرك لا أقول بأمور دينك فإن الإسلام ميزته الكبرى ، اعتداده بالتفكير ، واعتزازه بالعقل . ولهذا ليس فيه ، بينك وبين الله وسيط... ولكنى أقول يبصرك بالآراء المتعددة فإن الحقيقة يصل إليها الإنسان من أكثر من سبيل . والجدل موقف اختيار لا اعتسار أو حتى انتصار .

عندما تصيرين ، أماً ، كما أتمنى ، وفرى فى مكتبتك ، ركنا علميا عن الطفولة ، وتنشئتها وفقا لأعمق التجارب الإنسانية . . . وأحدث النظريات العلمية معاً .. أقرئى كما قرأت :

كتاب : (أكتشاف ميول الأطفال)

كتاب : (الأمانة دائما)

كتاب : (كيف تكون أباً ناجحا)

كتاب : (صحة أبنائك)

كتاب : (سبيلك إلى الصحة)

هذه نماذج فحسب ... أقف بك عند كل منها ، وقفة قصيرة تفتح لك الباب إلى عالمه . لنبدأ بالكتاب الأول .

(**اكتشاف ميول الأطفال**) تأليف فردريك كو دروبلانش بولسون وترجمة الدكتور محمد خليفة بركات .

وترجع أهمية الكتاب إلى الدور الكبير الذى تلعبه ميول الأطفال المختلفة فى توجيه حياتهم وإلى ضرورة تفهمنا نحن الأمهات طبيعة هذه الميول وقيمتها ووظيفتها ليكون توجهنا لأطفالنا أكثر توفيقا وسداداً ...

ويحدثك الكتاب بالطبع حديثاً مستفيضا عن الميول كيف تنمو وتتغير فى سنى العمر المختلفة وعن تأثير أفراد الأسرة وأثر الثقافة والبيئة وعن طرق اكتشاف الميول بالملاحظة والاستفتاءات — والاختبارات .

والكتاب ليس للقراءة فحسب بل هو للتطبيق العملى فهو يطلب إليك أن تستغلى معرفتك بميول طفلك وتساعديه على أن يتقن العمل الذى يميل إليه فى وقت فراغه فكثيراً ما يكتسب الشخص، الشعور بالمقدرة والأهمية من إحدى هواياته ...

وهنا تلوح لنا حقيقة كبيرة هى ضرورة تآلفك مع طفلك بحيث تعرفين كل مايهتم به وتلمين بإمكانياته فى العمل وأى الأشياء تثير اهتمامه أكثر .... وهنا تبدو قيمة اللعب بالنسبة للطفل التى قد يحسبها البعض لمجرد التسلية أو التدليل .... إن المؤلف يؤكد لك أن من الممكن أن يتعلم الطفل الكثير من الأشياء عن طريق اللعب بعرائس الورق والمكعبات الملونة والعصى الخشبية واللعب المعدنية كالطيارات والقطارات الصغيرة ... فهذه اللعب الصغيرة تكسبه معلومات وأفكارا جديدة عن الناس وحياتهم ....

وتفتح الكتب أيضاً أبوابا كثيرة لميول الأطفال وخبراتهم ويمكن بالفن والموسيقى أن تتسع مدارك الطفل وأن يتزود بخبرات أولية تتطور فيما بعد إلى ميول وهوايات ...

وهنا يجدر بك أن تراقبى بدقة برامج الإذاعة وتختارى منها لسماع طفلك مايوقظ به ميولا — جديدة أو يقوى ماعنده من الميول الأصلية ....

والكتاب حافل بألوان من الميول وألوان من الوسائل لإيقاظها أو

تقوية الموجود منها فارتياد الحدائق العامة ، واشتراك الأطفال فى إطعام الدواجن والطيور ، والرحلات إلى مجالى الطبيعة كل هذا يوثق علاقة الطفل بالطبيعة ويعمق إحساسه بالجمال والحب والخير ... ولا يخفى عليك بالطبع ما بالزيارة المتاحف التاريخية ودور الآثار والمصانع من فوائد فهناك سيتدفق عليك من أطفالك سيل من الأسئلة تستطيعين بلباقتك وذكائك أن تكيفى الإجابات عليها بحيث تفيدين منها فى توجيههم وتنمية مختلف الميول عندهم بطريقة غير مباشرة لا تشعرهم بجفاف الدرس والنصيحة فأنت تتسللين إلى نفوسهم فى رقة انسياب الماء فى العود الغض تهبه الحياة والنضرة دون أن تكلفه شيئاً أو تتقاضاه ....

ويسلط الكتاب الضوء على عامل مهم فى تنمية الميول وهو تدريب الطفل على الموازنة والمقارنة ومعرفة أوجه الشبه والخلاف بين الأشياء والعلاقات التى تربط الحوادث الجارية فى محيط حياته ..

ويحبذ المؤلف فى حماس اشتراك الكبار مع الأطفال فى ميولهم ، ونواحى نشاطهم فإن من دواعى سرور الأطفال وترغيبهم فى لونهم المفضل من الوان النشاط ، اشتراكنا معهم فيه وإشعارنا لهم بقيمته وإنها لمتعة حقا فضلا عن الفائدة إن نفضى أحدى الأمسيات فى قراءة القصص مع الأطفال أو الاستماع لبرنامج موسيقى أو الذهاب إلى إحدى نوادى اللعب مما يجمعنا بهم فى جو مرح خصب مثمر فى وقت واحد ...

والمؤلف فى النهاية يدعوك إلى جعل جو منزلك ملائما لميول أطفالك ومشجعا على نموها فميول الأطفال تكون قابلة للظهور والازدهار فى المنزل الذى يبذل فيه الآباء الجهد الكافى لتشجيع الأطفال وتقدير أعمالهم .

كتاب : (**الأمانة دائماً**) تأليف تاديوس كلارك وترجمه الأستاذ

«محمد عبد الحميد أبو العزم». وقد قدم للكتاب الدكتور عبد العزيز القوصى بمقدمة جاء فيها (من الأسس الأولى صحة النفس واتزانها وطمأنينتها أن يتصف الناس بالأمانة ونقصد بالأمانة أن يكون الشخص أميناً فى عمله ، أميناً فى حديثه ، أميناً فى اتجاهاته ، أميناً إزاء ما يملكه الناس .

وهو يؤكد أن الأمانة لا تعلم عن طريق التلقين أو الشرح أو عن طريق الاستماع للدروس والمحاضرات والإذاعات فالأمانة أسلوب أو اتجاه تصل إلى اكتسابه بالتعود ، وإحتذاء المثل ، وبالمعاملة .

ويؤكد الدكتور عبد العزيز القوصى مرة أخرى أن فقدان الأمانة قد يكون نتيجة لجو فقد فيه العطف ونضبت فيه المحبة وازدادت القسوة والشدة . والسرقة أو الكذب أو الغش تكون كلها فى هذه الحالات رمزاً للاعتداء ولاسترداد العطف المفقود ، وهذا سر من أسرار الحياة العقلية اللاشعورية .

والكتاب ينظر إلى الأمانة نظرة واسعة شاملة فهى لاتقتصر على المحافظة على مال الغير وعدم سرقته فحسب ، بل تشمل أيضاً الصدق فى القول . فلو عمد الناس فى أكثر وقتهم إلى أن يقولوا مالا يعنون لخلت اللغة من كل قيمة ، وامتنع الكلام بين الناس وانفصلت العلاقات بينهم إنفصالا تاماً .

بل إن الكتاب يعد الكذب الأبيض خطراً ؛ لأن المرء لايدرى فى كثير من الأحيان متى يضر. وهناك خطر آخر وهو أن الانحراف عن الأمانة فى الأمور الصغيرة كثيراً مايصبح عادة .

والكتاب يغريك يابنتى بالمرونة فى الفهم والتفسير ويحذرك من القسوة فى الحكم لأول وهلة حتى لا تزعزعى ثقة الطفل فى نفسه أو تولدى عنده

عقدة بلا مبرر إن المؤلف يقرر أن الأمانة تكتسب بالتعليم فلا أحد يولد أميناً أو غير أمين ، دائماً يتعلم الأمانة . وكثيراً ما يأخذ الطفل لعبة طفل آخر ، ويروى قصصاً لا أصل لها ويخرج على قواعد اللعب ،وليس معنى ذلك أن الأطفال لصوص أو كذابون أو غشاشون بفطراتهم ،وليس معناه أيضاً أنهم ينقصهم عضو هام يجعل الناس أمناء فلا وجود لهذا العضو فى واحد منا . والأمر لا يعدو أن الأطفال لم يتعلموا ، بعد ، أن يكونوا أمناء .

وتعلم الأمانة جزء من النمو والأمانة لا يمكن تعليمها على أنها مهارة متميزة بل على أنها ضرورة محتمه مرتبطة أشد الارتباط بكل ما نقول وما نفعل .

والكتاب يرجح أن عدم الأمانة يغلب أن يكون علامة على مشكلة عميقة ، فهو عرض أو أمارة على اختلال فى شخصية الفرد أو مرض قد يكون يسيراً أو خطيراً . ولهذا السبب لا ينبغى أن نبالغ فى قيمة الخوف فى منع الجرائم وعدم الأمانة فقد يكون عدم الأمانة علامة على عدم النضج : أو العجز عن النمو ، وقد يكون علامة على أنواع أخرى من العجز عن التلاؤم مع الحياة ومن حل المشكلات بنجاح .

وقد ينشأ عدم الأمانة من انعدام الثقة بالنفس أو الشعور بعدم الأمن ، أوالشعور بالنقص أو الافتقار إلى الحنو أو اعتناق قيم خاطئه.

وحين يقدر الكتاب صفات الأمانة ومظاهرها يحتفل احتفالا خاصا بصفة (الوفاء) كمظهر نابغ من مظاهر الأمانة . ولما كان الوفاء دعامة الصداقة الأولى ، فإننا نستطيع أن نتبين إلى أى مدى توثق الأمانة، العلاقات الحسنة بين الناس .

وآخر كلمة يفضى بها المؤلف إليك يا ابنتى لتلقنيها بدورك إلى طفلك هى أنه (لا يمكن المحافظة على الأمانة إذا ظلت المخالفات الصغيرة للأمانة تحفر تحت أساسها . وليس ثمة فرق بين الأمانة مع الغير والأمانة مع أنفسنا والأمانة فى حقائق الوجود . فيجب أن نجاهد جميعاً لنكتسب موقفاً ثابتا وعادة فى أن نكون أمناء فى كل ميدان من هذه الميادين .

كتاب : (**كيف تكون أباً ناجحاً**) وقد يبدو من عنوان الكتاب أنه قاصر على الآباء ولكنه فى الحقيقة ينوه بك ويتحدث عنك كزوجة وأم فى مواضع كثيرة منه فإن الأب الناجح فى نظر المؤلف هو أولا وقبل كل شئ زوج « صالح » فالعلاقة بين الرجل وزوجه جانب هام من جوانب دوره كأب . ومتى كانت هذه العلاقة متينة سعيدة فإنها تصبح الأساس الذى تبنى عليه الأسرة صرح الحب المتبادل والاحترام والرضا .

وقد وجد الأطباء أن ما يبديه الرجل من الحب والاحترام نحو زوجته أثناء مدة حملها ، يعود بالخير الكثير على الطفل والأسرة فيما بعد .

إن الأب فى مجتمعنا الحاضر كثيراً ما يضطر إلى الغياب عن منزله لدواعى العمل أو السفر مما يساعد على انقطاع اتصاله بأطفاله إذا لم يحاول عن قصد أن يصل هذا الانقطاع وأن يقضى وقت فراغه بينهم. فساعديه أنت يا ابنتى على تفهم مهمته والتأهل لهـا وأن خير ما يرفعك فى عينيه ، ويزيدك فى نفسه أن تتجاوبى معه فكرياً وروحيا ، وأكثر ما يسعده أن تقرئى له وأن يسمو حديثك معه ويترفع عن مشاكل الخدم وأخبار الجيران ويحلق فى آفاق رحيبه من الثقافة والمعرفة .. ولعل أقرب ألوان الثقافة إلى نفسك ، وأحب أنواع المعرفة إلى قلبك، ذلك الذى يتصل ببنيك . . . ذلك الذى يبحث فى تنشئتهم . . . فى تكييفهم ...

فى صقلهم ... فى مستقبلهم ... فلا غرو أن أحدثك الآن عن كتاب كتب للآباء فإنه كما ترين يتصل بالأمهات أشد الاتصال وأوثقه .

اقرئى الكتاب لتلفتى زوجك فى حنان إليه . وإذا رأيت بفطنتك أن مشاغله وأعباءه لا تدع له وقتاً لقراءته فحدثيه أنت شفاهة عنه حديثاً يشبعه ويمتعه ويغنيه .. استوعبى ما فى الكتاب من تجارب وتوجيهات وأضواء لتسترشدى بها عند اللزوم .. فإذا أخطأ الأب فى علاقة من علاقاته بأولاده ، تذكرى بسرعة ما وعته ذاكرتك من هذا الكتاب واجعليه نصيحتك لزوجك حتى لايقع فى خطأه مرة أخرى على أن يكون ذلك فى لباقة وتواضع يزكى نصيحتك عنده ويسهل عليك مهمة الإقناع .

إن فى الكتاب آراء حديثة فى التربية من واجبك الاطلاع عليها وتدبرها. أرجو أن تصغى معى إلى هذا الرأى مثلا :

« إن الأم التى تعنى بالا تنهاء من حمام أطفالها وإنامتهم قبل عودة أبيهم من الخارج حتى يستقبله الهدوء بدلا من الصخب ، والتى تحاول أن تخفى عنه شتى المشاكل التى تصادفها فى يومها ، هذه الأم إنما تضلل الجميع . فالأطفال يحتاجون إلى آبائهم ، والأزواج يحتاجون إلى زوجاتهم ، كل ذلك فى الأمور التافهة والهامة على حد سواء .

كما يؤكد الكتاب ضرورة هامة تتطلبها البنوة وهى أنه ينبغى أن يتفق الأب والأم على معايير السلوك وأن يؤيد كل منهما الآخر فيما يتخذه من قرارات .

والكتاب يطالبك أنت وزوجك بإشعار الطفل بالمحبة والترحيب منذ أول يوم يعرفكما فيه فإن ذلك يمهد له السبيل إلى تكوين شخصية سعيدة .

ولما كان الأب عادة أسرع غضباً من صراخ الطفل وطلباته فإن من واجبك أن توحى إليه دوره الخطير فى وجوب احتمال الوليد وتلبية رغباته بدون غضاضة أو تبرم ... فإن الكتاب الذى أحدثك عنه يؤكد لك أن حصول الطفل على الكثير من الحب والاهتمام فى أسابيع حياته الأولى وتجنيبه الحرمان من إشباع حاجته إلى الطعام عندما يجوع ، والراحة عندما يشعر بالوحدة كل ذلك يساعد على تزويده بما يعينه على النجاح فى معالجة ما سيصادفه من مشكلات جديه فى مستقبل حياته. وإن استطاع الطفل أن يجتاز عامه الأول فى يسر وسعادة فلن يكون من السهل على ألوان الحرمان التى تعترض سبيله بعد ذلك أن تثبط من همته ..

ومن حقائق هذا الكتاب أن إظهار حبنا للطفل والعمل على راحته إذا ما كان متضايقا لن يجعل منه شخصاً متواكلا أو (لين العود)، بل إنه فى الواقع يساعده على اكتساب الثقة بالنفس التى يحتاج إليها حتى يتعود الاعتماد على نفسه. ومن حسن الحظ أن هذا الرأى فى التربية يتفق وطبيعة المرأة التى فطرك الله عليها .

هيهات أن أحدثك عن كل ما جاء بالكتاب فى هذه الصفحات القليلة التى مضت سريعا قبل أن أبلغ منتصفه . فلتمض معه أنت إلى نهايته لتستكملى بدورك هذا الكتاب .

كتاب : (**صحة أبنائك**) ألفه روزيل وترجمة الدكتور سعيد عبده والكتاب يبحث لك مدى تأثر صحة طفلك بنظرته إلى الحياة والنهج الذى يسلكه فى نمو نحو البلوغ ، وكذلك أمراض الطفولة التى -- يمكن توقيها : أو تخفيف أضرارها ، وتلك التى تصبح أقل إيذاء للطفل إذا عرفت بواكيرها وأدركت بالعلاج السريع حتى الحوادث ، أفرد لها

فصلا خاصاً تتناول وسائل الأمان منها وطرق إسعافها لأن مثل هذه المعارف خليق أن ينقذ كثيراً من الأرواح . كما احتفل الكتاب بأهمية الغذاء ومساعدته الأطفال على الظفر بالصحة ، ونوه بالرياضة وجدواها فى تنشئة الأطفال على الجلد والقوة وجمال الأبدان .

أنت وزوجك فى نظر طفلك مثله الأعلى وهو يقلدكما بطبعه كعادة الأطفال ولهذا يعلق الكتاب أهمية كبيرة على تصرفات الآباء والمعلمين ومن ثم أود لك أن تقرئى هذا الكتاب ونظائره مما ينحو هذا المنحى ويتجه هذا الاتجاه حتى تستطيع انطباعاتك أن تهدى الطفل بالإيحاء وتوجيهه الوجهه السليمة بالقدرة .

والكتاب يوصيك بتشجيع طفلك على الرياضة وترغيبه فيها فإن لها أثراً بالغاً فى تقوية الكفاية الوظيفية لأنها تزيد من قدرة الطفل على تحمل الجهد . وباشتراك الطفل فى الرياضة التى يزداد عنفها بالتدريج سيتعود شيئاً فشيئاً أن يتحمل العمل الشاق . وهذا من الأهمية بمكان ، إذ أن الطفل إذا تعود ذلك أصبح فى حالة تمكنه من القيام بأشق الأعمال فى مستقبل حياته إذا دعت الضرورة إلى ذلك . وما دام يومئذ فى هذا المستوى العالى من الكفاية الوظيفية فسيتجنب حتماً إجهاد نفسه . والطفل الذى تعود الرياضة البدنية لا يكاد يحس تعباً إذا قام بعمل من الأعمال ، بل إن رصيده من القدرة على عمله التالى يكون أكبر وأضخم .

ووسيلة أخرى من وسائل تدعيم الكفاية ينصح بها هذا الكتاب ألا وهى الاسترخاء والراحة فإن لهما من الخطر مثل ماللعمل والرياضة فى تقوية البدن . وهو يحدثك حديثاً مفصلا عن الطعام اللازم لطفلك فى مراحل نموه المختلفة .

أنواعه ومقاديره وقيمته الغذائية والحرارية .

كما يحدثك حديثاً رحبا عن الأمراض وأعراضها وأطوارها ومتى يقاوم المرض ومتى يستدعى الطبيب وكيف تختارين الطبيب . وينوه الكتاب بالاستشارات الطبية الدورية فى حالة الصحة ويطلب إليك أن تعلمى طفلك أن زيارة الطبيب وطبيب الأسنان فى فترات منتظمة ، تعينه على أن يبقى فى صحة جيدة وعلى أن يصبح أصح مما كان ... ومن شأن هذه الزيارات أن تعلمه فى نفس الوقت معنى الطب الوقائى الصحيح .

والحوادث التى يغلب على الفهم أنها من صنع الطريق يقرر الكتاب أن كثيراً منها يحدث فى البيت . ويحدث نصف هذه الحوادث المنزلية على الأقل فى أعقاب التعثر والوقوع وأنها يمكن أن — تنخفض انخفاضاً كبيراً إذا اتخذنا ما يأتى من وجوه الاحتياط .

١ — إضاءة السلم على الدوام .

٢ — وضع سياج على السلم .

٣ — تثبيت السجاجيد فى الأرض حتى لا تنزلق تحت الأقدام .

٤ — وضع الآلات واللعب والأحذية وقطع الأثاث فى مكانها حتى لا تعثر بها الأقدام فى الظلام .

٥ — وضع مساند للأيدى فى الحمام توقيا للانزلاق .

ويمضى الكتاب يحدثك فى هذا الموضوع ومنه توقى الحرائق ، وراحة الإنسان فى قيـــادة السيارات والسياحة ، والصيد ، والرياضة ، وخاصة كرة القدم التى يهواها أبناؤك كعادة البنين .

ويقف الكتاب بك وقفة خاصة عند صندوق الأدوية فهو يرى أن إسعاف الحوادث يبدأ من ذلك الصندوق البيتى الصغير الذى يجب أن يملأ بحوائج الأسعاف الملائمة ولكن فى غير اكتظاظ .

ومن الحكمة أن يحتوى الصندوق على قطع مربعه من الشاش المعقم معزولة فى أكياس معقمة وعلى أربطه وشرائط من المشمع اللصاق ، وعلى بيكربونات الصودا ويمكن تحويلها إلى عجينه توضع على الحروق البسيطة وملعقة شاى منها فى كوب من الماء يمكن استعمالها فى غسل القذى من العين ومسحوق الخردل أو ملح الطعام فإن ملعقة كبيرة من ملح الطعام أو ملعقة صغيرة من مسحوق الخردل فى كوب من الماء الدافئ تساعد على إحداث القيء فى حالات التسمم .

بهدى مثل هذه المعلومات يا ابنتى تستطيعين أن تعينى طفلك على أن يظل قويا صحيحا ثم ترقبيه فى مدرسته ولعبه وعمله واسعدى بالغراس الطيب الذى تعهدته يداك . ليس هذا فحسب ، بل إن طفلا يربى تربية صحية لابد وأن تتاح له فرصة لإدراك شباب أسعد وأنفع وأكثر إنتاجا فى الحياة .

* * *

كتاب (**سبيلك إلى الصحة**) تأليف ج . روزويل صالجر وقد قام بترجمته إلى العربية الدكتور سعيد عبده... وقد احتفلت بتقديم هذا الكتاب إليك لأنه جزء من رسالتك التى تتمثل فى خلق البيت السعيد وبعض مقومات سعادة الفرد والأسرة والوطن بل لعل أهم مقوماتها ، الصحة الجيدة . . . ورفع المستوى الصحى فى بيتك وبين بنيك إنما هو دفع لوطنك إلى — الإمام ، وارتقاء بنهضته إلى أعلى فالصحة والنهضة يؤثر كل منهما فى الآخر ويتأثر به إلى أبعد حد يمكن لك أن تتصوريه ..

والكتاب فى جملته وتفصيله يحتفل بحقائق النمو والبلوغ والتغذية والرياضة كما عرض الكثير من الأمراض : أعراضها ووسائل الوقاية

منها أو السيطرة عليها على الأقل ولم يغفل الحوادث مبصراً بطرق تفاديها .

ولما كان الطعام الغنى بالقيمة الغذائية سبيلا إلى الصحة فقد وقف المؤلف عنده وقفه طويلة مبيناً أهميته لسلامة الجسم ونموه ومده بالطاقة والنشاط وأفاض فى أنواعه وقيمة كل منها الغذائية مما حدثتك عنه مراراً ولا أرانى فى حاجة إلى الإعادة .

وقد أثار الكتاب نقطا تعنيك كثيراً وهى كيف يتسنى للمرء أن يزيد وزنه أو ينقصه .

والكتاب يريك وأطفالك بممارسة لون من ألوان الرياضة البدنية المعتدلة بانتظام فإن ذلك سيجعلك أشد شعوراً بالعافية وأكثر إقبالا على الطعام وأهدأ نوما وأكثر متعة بالحياة .

والمؤلف يؤمن إيماناً مخلصاً بأن الوقاية خير من العلاج وأيسر ومن ثم عرض فى تفصيل غير قليل لأمراض تتمنين ويتمنى معك تجنيب أطفالك معاناتها . وتجنبها لحسن الحظ فى استطاعة المرء بمراعاته ألوان بسيطة من الحيطة فالأمصال واللقاحات الواقية دروع هامة لتوقى الأمراض منها ما يحمينا من بعضها كلية ومنها ما يهذب بعضها الآخر ونصيحتى إليك أن تقرئى هذا الفصل من الكتاب بعناية تامة ليتجمع لك أكبر قدر ممكن من العلم بهذه الأمراض والمعارف المتصلة بأعراضها ووسائل علاجها بل توقيها قبل أن تحدث وتستفحل فإن مثل هذه المعارف إذا احتفلت بها وجهدت فى استعمالها توفر عليك الكثير من المعاناة وتوفر لك الكثير من الوقاية التى هى بحق خير من العلاج .

ويمضى الكتاب بعد هذا يحدثك عن ألوان من الأمن والسلامة تجنب حياتك المزالق وتؤمن بيتك من الأخطار فما يدعو إلى العجب والدهشة

أن البيت ، كما دلت الإحصائيات مجال كبير للحوادث التى ينشأ نصفها عن السقوط ومن ثم يناشدك المؤلف اتباع الاحتياطات التى شرحها لك فى الكتاب مما تضيق عنه هذه الصفحات المحدودة .

١ – تحققى من إضاءة السلم إضاءة كافية .

٢ – يجب أن تكون « المشايات » مثبتة فى مكانها لمنع الانزلاق .

٣ – لا يجوز ترك المواد السامة دون علامات تدل عليها ، ولا وضعها فى متناول أيدى الأطفال .

٤ – لا يجوز أن توضع (الفيشات) الكهربائية فى مكان يسهل فيه لمسها بأيد مبتلة .

٥ – لا تترك الآلات أو اللعب أو الأحذية أو قطع الأثاث مبعثرة على الأرض أو السلم ، حيث يسهل التعثر بها .

٦ – كونى حذرة فى التخلص من بقايا أنابيب الإضاءة اللماحة (الفلورسنت) إذا تلفت ، وتجنب نثار زجاجها المحطم ، وما يتسرب منها من الغاز .

هذه بعض لمحات من الكتاب اكتفيت إزاءها بالإشارة دون الإحاطة معتمدة على قراءتك له فليس مثل القراءة دليل .

لقد قرأت كثيراً كثيرا .. لنفسى قبل ميلادك ولك بعد المولد لأرشد وأسترشد فإن مهمتى – معك ومع إخوتك لم تكن تربية طفل وتغذيته لينمو بل كانت « **صناعة الإنسان** ».

قرأت كثيراً وما هذه النماذج التى قدمتها لك إلا لأنها مباشرة قريبة الفائدة لمن هى حديثه عهد بالأمومة . . ولو حاولت الحديث عن كل كتاب

لاستنفدت وقتى ووقتك .. فضلا عن أن الناصح المحب أبا أو أما أو معلما إنما هو مفتاح فحسب إلى عالم بلا حدود هو عالم المعرفة .

أدخليه على بركة الله واقرئى لنفسك ما تريدين فلم تعد ، ابنتى ، الطفلة التى تدلل فى قماطها ولكنها غدت الفتاة ذات الدين والعقل والذكاء والإرادة . . وهى مواهب أومن وأوقن أنها بتوفيق من الله وسداد ستصنع عالمك الخاص السعيد ... يارب

رقم الإيداع ٤٥٦٧ لسنة ١٩٨٣

مطابع سجل العرب

الناشر
عالم الكتب
٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة